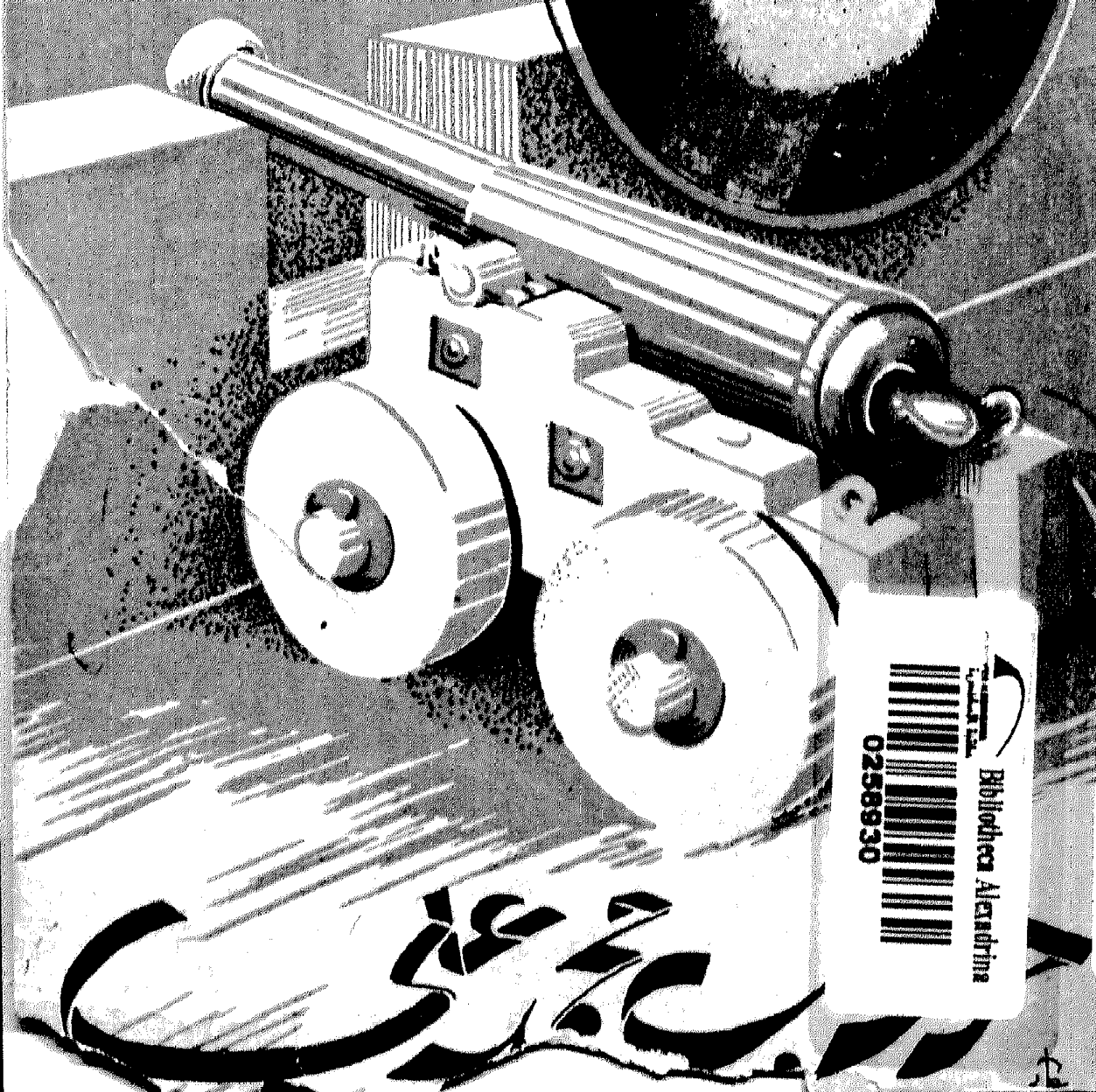


السينما



0258930

Biblioteca Alexandrina

اهداءات ١٩٩٩

مكتبة

ا.د عبد الحميد بدوي

القاضي بمهنة العدل الدولية

وقت صبح المآل الدكتور عبد الحميد بدوي باشا

الشيخ

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
مركز تنظيم مكتبة الإسكندرية
مكتبة الإسكندرية
مكتبة الإسكندرية

الشيخ



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Maktabat al-Kutub al-Ahliyya

إذا فتح الله عليكم بمصر
فاتخذوا بها جنداً كشيفاً
فإن هذا الجند خير أجناد الأرض
مدرست شريف

مطبعة القوئل بالجواميز

من كتب المؤلف

... ولقد حقق عملا عظيما وأتى على ناحية هامة يحتاج
الرجل العسكري والرجل المدني إلى إدراك شئونها وفهم
دقائقها ... « الفريق عمر فتحي باشا »

الهجوم على أوروبا

كتاب شائق من عدة وجوه : عرض بديع وحقائق دقيقة
ودراسة منطقية لا أثر فيها للتحييز ...

حرب الصحراء
المصرية

Le Journal D'Egypte

.. ملم بمقدمات هذه الحرب وأطوارها ، ولما اتصلت
بالحرب مسألة إلا كان له الإمام بطرف من أطرافها
« الاستاذ عباس محمود العقاد »

.. قصة ممتعة متتابعة الوقائع مع أنها خاصة بمرحلة من أشق
مراحل الحرب والفضل في ذلك لسعة اطلاع المؤلف وحسن
إدراكه للفن الحربي والخطط العسكرية « المقطع »

في شمال أفريقيا

يجمع إلى خصائصه الفنية حقائق شائقة ومعلومات دقيقة
وقد لقي ترحيبا إجماعيا من مختلف الأوساط المصرية والأجنبية
« La Bourse »

هذه هي الحرب

لئن أعوزنا المثل الأعلى لبث روح العسكرية في البلاد
وتقوية النفوس بمعاني الجندية السامية فلننله في هذا
الكتاب ، وهو وليد دراسة عميقة وإحاطة شاملة ونفس
وثابة فاضلة « الاميرالاي أحمد عوني بك »

إهداء

سألتى المغفور له دولة أحمد ماهر باشا
قبل مصرعه التاريخي بأيام عن كتابي الجديد ...
ولم يدر أنني كنت معتماً إهداءه إليه ،
ولم أدر أنه سيحدث ما يجعلني أهديه إلى ...

إلى روح المغفور له أحمد ماهر باشا

الذي علم هذا الجيل أن الوطنية كرامة وعدل
وأنها أداء الواجب ... مهما كانت العواقب

السيد فرج

المراجع

عبد الرحمن الجبرتي	عجائب الآثار في التراجم والأخبار
الميرالاي اسماعيل سر هنك	حقائق الأخبار عن دول البحار
علي مبارك باشا	الخطط التوفيقية الجديدة
الأمير عمر طوسون	جيوش مصر البرية والبحرية
بيير كرتس (ترجمة الأستاذ بدران)	إبراهيم باشا
عبد الرحمن الرافعي بك	عصر محمد علي

و

The founder of modern Egypt, a study of Mohmed Ali	Henry Dodwell
A short memoir of Mohamed Ali	Sir Charles Augustus Murray
Histoire militaire de Mohamed Aly et de ses fils	Le Général Weygand
Mon pays, le renovation de l'Egypte, Mohammed Ali	Princesse Chivékiar
Histoire de la guerre de Mohamed Ali contre la Porte Ottomane	Cadalvène et Barrault

تتمتع لديهم

لحضرة صاحب السعادة الفريق محمد هبيرة باشا

ياور جلالة الملك

وكيل وزارة الشؤون الاجتماعية

سبق أن قدم الضابط الأديب السيد فرج المكتبة العربية جملة
من مصنفاته : هذه هي الحرب - حرب الصحراء المصرية - في
شمال أفريقيا - الهجوم على أوروبا . . . وغيرها ، وهي مؤلفات
عسكرية يقدمها ضابط معروف

فالعلاقة بين المؤلف والمؤلف متوطدة ، وليس في هذا غريب ..
أما إنه يجيئنا اليوم بمؤلفه « حروب محمد علي » وإن كان في
العنوان ما يشير إلى ذات الصلة . . . فإن ذلك يعد اتجاهاً جديداً
أضاف به المؤلف إلى المكتبة العربية سيفاً رآ كانت أشد ما تكون
حاجة إليه ، وقدم للقارئ اطلاعاً تنبعث منه دوافع الهمة والعزيمة ،
وخصوصاً في هذا الوقت الذي يحتاج فيه الشباب للجد والحق والمضاء
وقوة العزم ... وهل أبعث على هذه الخلال - في تكوين الشباب ،
بل في إعداد الأجيال - من سائر المصالحين المتقدمين ، ومناهج
العسكريين السياسيين

لقد كان محمد على فذاً من أفذاذ التاريخ ، وقد شاء الله أن يخص به مصر في أسوأ حالات الحكم والاضمحلال الإجتماعى والاضطراب السياسى فاستطاع بفضل جهاده العظيم وحروبه المجيدة وسياسته الموقفة وإدارته الحازمة أن ينهض بمصر ويضع أساس رقيها فانتظمت الإدارة واستتب الأمن وعم الخير . . . وفى هذا التاريخ الحافل يجد القراء والباحثون من العسكريين والمدنيين ما يملأ النفوس فخراً وعزماً وما يدفع إلى ترسيم الخطى وترصد العبر من حياة هذا العاهل العظيم الذى أوتى العبقرية والمجد فأسبغهما على مصر والمصريين وقد رأى المؤلف أن يخرج كتابه على نسق يتحقق فيه الإيجاز وتوفر له الحقائق ، فتوخى القصد ولا حظ التبسط والتقديم بطريقة تناسب سائر القراء

وهذا فضل له منا — من أجله ومن أجل كتابه — شكراً عاماً يختص منه العسكريون بنصيب كبير حيث تربطهم الصلة المجيدة بصاحب التاريخ كما تربطهم بمؤلف الكتاب

وأخيراً ، ترى بين هذا السفر الجامع وبين الجمع الأعم من النشء والمفكرين والقادة ، وبين القائد الأعلى فاروق العظيم — الذى ينحو نحو والده الأجدد ويترسم خطوات جده العبقرى — أقدم الصلات وأوثق الروابط ، لخير مصر وبجهد شعبها

تصنيف

نصفحة من الماضي

يطلب لكثيرين أن يقبلوا على صفحات التاريخ مستوعبين
دروس الماضي مستذكرين ما كان لأسلافهم من فعال باهرة وآثار
مجيدة تعتر بها النفوس وتنتعش الآمال

غير أن هناك من يتجاهلون حاديث الماضي كما يصممون آذانهم
عن الصوت الذي يدعهم للنظر بعين الاهتمام في شؤون مستقبلهم ،
فلا يجدون من أنفسهم دافعاً لبذل الجهود ولا تساعدهم روحهم على
العمل والكد ، بل يغلب عليهم اليأس والخنوع ويأخذ بقاوتهم
الواجفة الوهم والتخاذل ، ويتع في روعهم - حين يجدون وطنهم
في مشقة - ألا منجاة له ولا سبيل للنهضة به ، فيعتذرون عن السعي
ويرتضون الحياة الناعمة ، وتسلبهم فكرة « لا فائدة » قوة الإرادة
وروح الكفاح وتنسبهم ما ينتظرهم من مستقبل رهيب حين يسلمون
أمرهم للشيطان

ولو أن هؤلاء أنعموا النظر في التاريخ لوجدوا أمماً تنهض من
ضعف وتحيا بعد ممات ، فلا مدعاة إذن لليأس ولا سبب للتخاذل

ولا بد من عمل — تحققت الغايات أم قامت في سبيلها العقبات —
فالعامل الذى يبدوه الآباء يتمه الأبناء ، ومن سار على الدرب وصل
وتاريخ مصر حافل منذ القدم بالأمثلة السكريمة والشواهد الناطقة ،
فكثيراً ما استهدفت هذه البلاد لغزوات كبرى ودارت عليها رحى
الدهر فى عهود مختلفة ، فما كان أسرعها استجابة لحاجات الساعة
وضرورات السياسة وما كان أبرها بماضيها وأوفها لتاريخها ، فلا
تمتد بها أسباب الضعف ولا تتحكم فيها عوامل اليأس ، بل سرعان
ما كانت تثوب إلى رشدتها وتكشف عن روحها وتستعيد أزمستها
وتأخذ فى توفل أدراج الصعود إلى مكانتها الرفيعة التى يشير إليها
ماضيها المجيد

وهذا الكتاب « حروب محمد على » رواية عهد قريب ، يقص
نبأ البلاد المصرية قبل قرن وربع قرن من الزمان ، حين نهضت
عن نفسها شوائب النقص وقضت على أسباب الفوضى ، ونهضت
نهضتها التاريخية التى استعادت بها سيادتها وأرست أساس حياتها
الحديثة

ويمكن القول بأن هذا الكتاب صدى لرغبات شباب مصر فى
يقظتهم الحاضرة ، وهم يتلمسون عوامل النهوض ودوافع التقدم ،
ولا شك أنه سيطيّب لهم درس أحياء مصر فى عهد محمد على باشا

وانتقلها من حالة ضعف وتأخر ، إلى منزلتها التقليدية في ركب الحضارة والمدنية

غير أنه يجب ألا تطوف بنا هذه النفحة الطيبة من الماضي الكريم دون أن نستذكر درساً عالياً ونصحاً غالياً جاء في رسالة ملكية سامية من صاحب الجلالة فاروق الأول إلى شباب شعبه الوفي : —

« أما مصر التي كانت فقد تولى التاريخ الكلام عنها والتغنى بآثرها ...

« وأما مصر التي ستكون فأنتم المسؤولون عنها
« وإنها لأمانة في أعناقكم

« فلا تجعلوا أنشودة التاريخ فيكم أقل روعة من أنشودته
في أجدادكم

« ولنؤمن جميعاً بمصر فإنها كنانة الله

« ولنعمل لها

« وسيرى الله أعمالنا ويباركها »

الوصول إلى الحكم

هذا كتاب موضوعه حروب محمد علي وهو موضوع لا يمكن فصله عن الأصل ، أى عن شخص محمد علي وأعماله وعهده . . . ولكن إذا تطرق بنا البحث في هذه النواحي لاحتاج الأمر إلى مؤلفات ضافية الفصول ولهذا سنكتفى ببحوث موجزة في كل ما يتصل بالموضوع الأصلي من النقاط الضرورية

» » »

محمد علي باشا هو رأس الأسرة العلوية ومنشى مصر الحديثة ولد في مدينة قولة ، بمقدونيا ، سنة ١٧٦٩ ، وهى السنة التى ولد فيها نابليون بونابرت

والده ابراهيم أغا من رجال الضبط فى قولة ، من أصل تركى ، ومن عائلة صغيرة ولكن كريمة بمجدّة ، ترك ولده طفلاً ليس له مال ولا صناعة فكفله عمه طوسون ، ثم نشأ فى كنف حاكم قولة وكان يدعى « الشوربجى » كما أظله برعايته المسيو ليون — قنصل فرنسا فى قولة — وكان يتولى بعض الأعمال التجارية فأشرك فيها محمد علي

حين توسم فيه النجاة والفظانة وتوقع له نجاحا عظيما
وعرف في طفولته بالوسامة والذكاء ، والولوع بالفروسية
والعاب السيف ، وبلغ مدارج الرجال مبكراً فمارس التجارة واكتسب
الخبرة في دراسة الشعور والعواطف ، وأصول التعامل وفن
اقتناص الفرص

وعندما انتظم في ملك العسكرية كان ذلك بشيراً له بالمجد ،
وسرعان ما تسكفت مواهبه الفذة فاشتهر في عدة أعمال بحرية ضد
القرصان كما عمل في القوات التي كانت تكلف باخضاع الثائرين أو
المتخلفين عن دنع الضرائب ، وبلغ رتبة اليوزباشى وتزوج من
قرية حاكم البلدة ، وهى أم أولاده ابراهيم وطوسون واسماعيل
وجاء إلى مصر فى حملة القبطان حسين باشا ، التى جردتها تركيا
— بإيعاز من إنجلترا — لإخراج الفرنسيين من مصر

وخاض غمار الحرب ضد الفرنسيين — وكانوا مردة الحرب
فى ذلك الوقت — فأدرك أصول الحرب الحديثة ووجدت مواهبه
ميدان رحباً ، وخصوصاً بعد أن ولى أمر « تجريدة قولة » . وكان
لما أظهره فى تلك المواقع من الصفات الحربية العالية ما مكن له
من الترقى السريع فبلغ رتبة الأميرالاي وتولى قيادة أحد الألوية فى
سنة ١٨٠١ وهى السنة التى انحسر فيها ظل الفرنسيين عن مصر

بمقتضى اتفاقية لندن ، وأعيدت مصر لحكم تركيا المطلق
وبهذه الخاتمة تكون مهمة محمد على في مصر قد انتهت ولـسـكنه لم
يبارح البلاد ، وساعدته بصيرته النافذة وقريحته الوقادة على فهم
أوضاع الحكم والحياة في مصر وإدراك أسباب الضعف وأسرار
الفوضى ، وقد وجد أمامه أمة ذات تاريخ ومواهب وقد حيل بينها وبين
النهوض والعلاء ، تتنازع أمورها قوى مختلفة وتذهب بقوتها
الأحقاد والفتن . . . ولم يكن هناك الرجل الذى يفهم أسرار الحكم
فيقضى على عناصر الفوضى ويرفع العقبات عن الطريق لـسـكى تسير
مصر إلى مكان جدير بماضيها . . . أجل كان محمد على يرى من
الأشياء ما لا تراه عيون الآخرين ويتوقع من الحوادث والتسامح
ما لا يخطر ببال . . . وقد استشف ما يخبئه القدر لمصر ، واستلهم
وحى طموحه ، وتذكر تنبؤات الماضى* ، فرأى كرسى الولاية في
متناوله ، وخصوصاً عند ما يكون سيفه في يده

وأخذ الرجل الخبير بالأسواق والمضاربات يرقب مجرى
الحوادث ويضع خططه ؛ ويستعد لمواجهة منافسيه والقضاء على

* قيل أن عرافة تنبأت لمحمد على بمستقبل كبير ، وهو طفل في المهد ،
وأن رجلاً مباركاً نصحه بالانتظام في حملة مصر حين كان محمد على متردداً فقال له
« يا بني ، إن الطريق طويل ولـسـكنه يقودك إلى المجد »

العقبات التي تُعترض طريقه إلى الحكم ، فقد كان أمامه الأتراك والمماليك والألبان والتدخل الأجنبي ، وكان لا بد له من أن ينتصر على كل هؤلاء كي يستقل بمصر ويدفع بها إلى حياة جديدة حافلة

في فبراير سنة ١٨٠٢ تولى خسرو باشا زمام الأمور في ولاية مصر ، التابعة لتركيا ، وكان محمد علي في معيته ، يشترك معه في وضع الخطط ويؤدي بعض الخدمات ، وكان الجهاد ضد الفرنسيين قد انتهى وجاء دور المماليك - الذين تؤيد انجلترا سعيهم إلى النفوذ والسلطان - ولم يكن خسرو الحاكم القدير أو الخصم القوي الذي يستطيع أن يقضي على عناصر الفتنة والتمرد فاضطربت شئون الحكم في يده وأثرت تصرفاته الخرقاء في الموقف الحربي فحدثت الانكسارات العسكرية المتوالية أمام المماليك وقد اتهم في أمرها محمد علي فاستدعاه الوالي للتحقيق معه ولكنه رفض الانصياع للأمر ورد بعنف : « سأجىء في وضوح النهار وبين جنودى ! » وهى قولة القائد الواثق بنفسه المتمكن من قوة جنوده وولائهم له . . .

ولم تنقطع القلاقل والمشاغبات في تلك الفترة المليئة بالأحداث والانقلابات وكان هناك المماليك يرفعون لواء الحكم في عدة مدائن ، والألبان والأتراك ، وقد انفرط عقدهم وظهرت خصومتهم ، وأنصار طاهر باشا ، الذى انقلب على الوالى ، ثم جنود محمد علي

الذى شق عصا الطاعة وناصب الوالى العدا.

وقف محمد على بمنأى من المشاغبات والمنازعات ، وفضل سياسة الحياد فلا يناصر فريقا على فريق ، وظل يترقب نتائج المعارك حتى تسنح الفرصة المناسبة فيتصيدهما ثم يمضى إلى هدفه بغير إبطاء وثار الجند على خسرو حين دفع بهم الى قتال المماليك دون أن يدفع رواتبهم ثم اشتبك في نضال مع احمد باشا طاهر قائد الأرئود الذى كسب الجولة الأولى في هذه المعركة الفوضوية ووثب الى كرسي الولاية

وحاول طاهر باشا أن يثبت أقدامه في ولاية مصر ولكنه أخفق في محاولة القضاء على خسرو ولم يكن حاكما قديرا يفهم في « إدارة الرجال » فحدث التنافر بين الأتراك والالبان ، وقامت قيادة الانكشارية حين كان قائدهم أحمد باشا في طريقه الى بلاد العرب ، وحدث قتال مشوش قتل فيه طاهر باشا وعادت ولاية مصر شاغرة

وفتح احمد باشا ، قائد الانكشارية ، لتولى الحكم ، فرضى بما عرضه عليه أعيان الترك ولكنه اشترط أن يؤيده محمد على ، الذى كان مبتعداً عن دائرة الفوضى ولم يكن يعنيه غير تدعيم قوة جنوده وتوكيد صلاته بالاهالى وانتظار الساعة المناسبة لبدء دوره

رفض محمد على ما عرضه عليه الوالى الجديد وأرسل اليه ينصحه
بترك شئون مصر لمصر ، وقرر أن يخطو خطوة جديدة فيخرب
الاتراك بالماليك ، ودعاهؤلاء لدخول القاهرة فاستمعوا له وشرعوا
فى الزحف عليها وقضوا على الانكشارية وحركة أحمد باشا ، ثم
أصبح الأمر فى أيديهم ، ولو أن محمد على كان فى الحقيقة قابضا على
هذه الأيدى ، وفى هذه الأثناء تم القضاء على قوة خسرو وعلى حركة
الألنى . . . وخلا الجو قليلا

وبدأ محمد على الجولة الثانية حين صمم على ضرب الماليك
بالالبان ! وانتهاز فرصة هياج الجنود بسبب تأخر رواتبهم فأحاطهم
بدهاء الى زعماء الماليك ! ولم يجد البرديسى مفرا من طلب ضرائب
جديدة فثار الأهالى وسخط كبارهم على هذه التصرفات الخاطئة . .
ودخل محمد على باشا الحومة فسدد ضربته بحكمة إذ طارد الماليك
من القاهرة ثم انقلب يابس مسوح رجل السياسة فذهب الى القلعة
وفك أسر خسرو حتى يفهم الملاء أنه ليس رجل أطماع شخصية ،
وبذلك نال حظوة كبيرة عند الأهالى كما أصبح موضع رضا الباب
العالى . . . وقليلون هم الذين يستطيعون أن يضربوا عصفورين بحجر
ودخلت المسألة المصرية فى مرحلة جديدة حين ثار الألبانيون
على خسرو وأبعدوه عن مصر بينما كان محمد على يطارد الماليك فى

الصعيد ، وجاء خورشيد باشا حاكم الأسكندرية ليتسلم ولاية مصر ،
فرأى أن يتخلص من محمد علي - حتى يخلو له الجو - فاستصدر
مرسوما بتعيينه والياً على جده ، فرفض محمد علي وانقلب راجعاً إلى
القاهرة مطمئناً إلى ولاء الجنود وعطف الأهالي

وجاءه أهل الرأي من رجال مصر وطلبوا إليه عزل خورشيد
واختاروه - أي محمد علي - والياً عليهم وجاء في خطابهم « لا نرضى
إلا بك ، وتسكون والياً علينا بشروطنا » وتقدم السيد عمر مكرم
والشيخ عبد الله الشرقاوي فألبساه الكرك والقفطان وهما شارتا
الحكم وعينوه والياً ، وأرسلوا إلى السلطان ملتمساً بطلبهم فأقر
رأيهم - وإن كان كارهاً - وبعث قبطان باشا حاملاً سند الولاية
وفرمان الحكم لمحمد علي في ٩ يوليو سنة ١٨٠٥

وهكذا استوفت المقادير في شخصية محمد علي من أيا الحاكم القدير
كما أجمعت على صلاحيته لهذه الولاية ، وهو الرجل المتوقد الذهن
النافذ البصيرة ، الذي أصبح بفضل كفايته وطموحه بطل الموقف
بجاءته الولاية منقادة ، ولم تك تصلح إلا له

فلما رجع قبطان باشا إلى تركيا في أكتوبر سنة ١٨٠٥ قال
« لم يوفق سلاطيننا إلى رجل مثل هذا الباشا في دهائه وحزمه ومضاء
عزيمته »



محمد علی باشا

القضاء على الخصوم

ترجع محمد علي باشا على أريكة مصر حين رفعته إليها الزعامة الشعبية وصادق السلطان على هذا التعيين

ولسكن ذلك كان في عهد وصفت فيه ولاية مصر بأن الوصول إليها آية والبقاء فيها معجزة

وقد رأينا كيف كان الولاة يتساقطون الواحد تلو الآخر لأن أرض الفوضى والعن والانهيارات لا تبقى شيئاً ثابتاً، ولو كان كرسى الحكم

ولهذا فإن الجهاد الذي كان محمد علي قد بدأه في طريقه إلى الولاية لم يكن قد انتهى بل زاد كثيراً وأصبح نضالاً كبيراً واسع النطاق فقد كان عليه أن يواجه عدة عناصر خطيرة ويقضي عليها قبل أن يستتب له الأمر ، وهي : الاتراك ، المماليك ، الأرمن ، والعناصر الأجنبية المعادية . . . فأعد لكل منها خطة مناسبة وحدد لها وقتاً

لم يكن مختار الاستئانة ، وإنما كان وصوله إلى الولاية أمراً

جديداً لم تألفه دوائر الباب العالي ولم تطمئن له ، فاذا كانت قد اضطرت للرضوخ وموافقة زعماء الشعب على وجهة نظرهم فقد كان ذلك ترضية وقتية وحلا لا مناص منه حتى تمر الأزمة فتراجع النظر في الموقف وتحدث من التغير ما يناسب المقام . . .

ولذلك جعلت ترقب الحالة في مصر وتراجع كفتي الميزان بين محمد علي ومناوئيه ، وأبقت في الاسكندرية عمارة بحرية تحت قيادة قبطان باشا وجعلت مهمته تثبيت محمد علي أو عزله كما تقضى الظروف .

واستخدم محمد علي فطائنه وحسن دهاءه فأخذ يصور للربيب ، قبطان باشا ، ما ترمى إليه أعمال المايلك ، الذين تسندهم سياسة أجنبية لها مراميها تتعارض مع نفوذ الباب العالي ، ويفصح عن وجهة نظره التي لا هدف لها سوى انتشار مصر من الفوضى ، وأداء واجبه نحو السلطان

وكان محمد علي يعتقد أن قوة الحاكم من قوة شعبه فعنى باسترضاء الرأي العام — الذى انتقل على أكتافه إلى الحكم — وكسب ثقته وتأييده ، فكان يستشير الزعماء فيما يعن له من آراء ويشاورهم فيما يقدم عليه وذلك كي يستبقى مكائنه الشعبية ونفوذه بين الجماهير ، فالعرش الذى يسندة الشعب لا يسقط أبداً . . .

وبدأ محمد على جهاده ضد المماليك فقد دأبوا على بث الشباك وإلقاء المصائد في طريقه ، وكانوا قوة لا يستهان بها ، غير أنه كان دائماً مفتيح العينين نفاذ البصيرة ، فسبقهم إلى مكائدهم وأوجد في صفوفهم « الطابور الخامس » ، ورصد لهم العيون وبعث إليهم من يغرب بهم ، فإذا هم يشرعون في الزحف على القاهرة يتلمسون مساعدة كبار أهل الرأي ولكن هؤلاء أغلقوا الأبواب في وجوههم فلم يجدوا تأييداً من الأهالي فاختلّفوا وتنازعوا وذهبت ريحهم ، ولاذ بعضهم بالفرار ووقع البعض في قتال شاق مع جنود محمد على فضاخوا بين قتلى وأسرى ولم يتفق لهم « أقبح ولا أشنع من هذه الحادثة » كما جاء في رواية الجبرتي

غير أن جهاد المماليك لم ينته عند هذا الحادث وأشبهه ، فقد كانوا دائبي السعى على السكيد لمحمد على وزلزلة الأرض تحت أقدامه ، وكان لهم نفوذ في الصعيد يعد مصدر خطر كبير ، وإذا كانوا قد أخفقوا فيما أسماه « الزحف على القاهرة » فإنهم لم يعدموا وسائل أخرى ، ورأوا أن يجربوا السياسة ففاوضوا محمد على أن يقطعهم أرضاً ، ولكن رجل الحكم والسياسة لم يقبل أن يقيم دولة في الدولة ، وجعل يترقب الفرصة التي يسد فيها ضربه إليهم

ووجد المماليك منفذاً آخر ، فقد استعانوا بالإنجليز لدى الباب العالي

وأوغروا صدر أولى الأمر في تركيا ضد محمد علي، فعطفت الأستانة على قضية الممالك وصممت على عزله، وأرسلت لذلك حملة تعدادها ثلاثة آلاف جندي تحت قيادة صالح باشا وأوفدت معه والياً جديداً هو موسى باشا

وفوجي محمد علي باستلام فرمان نقله من مصر وتعيينه في سلايك فتظاهر بالطاعة وطلب فسحة من الوقت حتى يؤدي للجنود ما تأخر من رواتبهم، وأخذ يعالج الأمر بحكمة ويستخدم الدهاء للتخلص من هذا الموقف السيئ، ولجأ إلى زعماء الشعب وشاورهم في الأمر (١)، حتى إذا استوثق من إخلاصهم واطمأن إلى تأييدهم شرع يستعد للمقاومة ويرد على الاعتداء...

وذكر الجبرتي أن الباشا « شرع في عمل آلات حرب وجلال ومدافع، وجمعوا الحدادين بالقلعة واصعدوا بنبات كثيرة واحتياجات ومهمات وجمع إليه كبار العسكريين وشاورهم وتناجى معهم فوافقوه على ذلك... »

(١) أرسل الزعماء ملتجئاً إلى السلطات التركية يذكرون فيه أنهم لا يرتضون محمد علي بديلاً فهو « كاهل الاقليم وحافظ ثغوره ومؤمن سبله وقاطع المعتدين وأن الكافة من العامة والخاصة والرعية راضية بولايته وأحكامه وعدله، والشرعية مقامة في أيامه، وجميع أهل القطر المعري مطمئنون لولاية هذا العزيز... »

ولكن أسلحة القتال لم تكن كل ما تخبئه جعبة محمد علي ، وقد كان يعرف أسلحة أخرى لها فعل السحر فرشا رجال الحاشية ، فهدأت أعصابهم (١) ، واستمال إليه الفرنسيين فنال تأييدهم (٢) ، وألقى بالخصومة بين رؤساء المماليك فتحول ثقل الأزمة قليلا

وقد حدث خلاف بين زعماء المماليك ولم تتفق كلمتهم وبذلك خيبروا ظن الجهات التركية ورأى صالح باشا ما كان من تأييد زعماء الشعب لمحمد علي فيكتب إلى الباب العالي في ذلك ، ففوض له أن يتصرف في الموقف فأنحاز إلى جانب محمد علي واستصدر مرسوما بإبقائه في ولاية مصر « حيث أن الخاصة والعامة راضية بأحكامه وعدله بشهادة العلماء وأشراف الناس »

ولما اطلع قبطان باشا على ماجريات الحوادث ولاحظ ما بين المماليك من خصومات وأدرك قوة محمد علي وسيطرته على الموقف انحاز إلى جانبه وثبته في الولاية وعاد إلى الآستانة ومعه خورشيد باشا وهكذا استطاع محمد علي بالدهاء وحسن السياسة أن يتجنب

(١) بعث محمد علي عريضة زعماء الشعب لتقدم إلى السلطان ومعها ألفا كيس لتوزع على أصحاب النفوذ في الآستانة

(٢) من الجهود المذكورة ما بذله سفير فرنسا لدى الباب العالي في تأييد محمد علي

غضب السلطان ، و وعد بارسال ٤ آلاف كيس من النقدية هدية الى
الآستانة ، ولكن المال لم يكن حاضرا وكان قبطان باشا رجلا عنيدا
فأخذ يهدد بعزل محمد على . . ولكن أمكن حل الموقف بان يرسل
ابراهيم بن محمد على رهينة إلى الآستانة - ومعه الهدايا الثمينة للسلطان
وحاشيته - وأن يبقى بها حتى يدفع المال كله

وفي نوفمبر سنة ١٨٠٦ وصل فرمان تثبيت محمد على وبذلك
انقضى حكم تركيا لمصر مباشرة وأصبح الأمر بيد هذا الوالى
العظيم . . .

أما ما حدث من قتال محمد على والمماليك حين بعث اليهم بحملة
الرحمانية فقد كانت وقعته المهمة « النجيلة » يوم ١٢ أغسطس
سنة ١٨٠٦ وقد هزمت قوات محمد على - التى كان يتولى قيادتها
طبوزا أوغلى وطاهر باشا (ابن أخت محمد على) - فانسحبت إلى
منوف ، وقال الجبرتى فى وصفها : « وردت الأخبار بأن العساكر
السكائين بالرحمانية ومرقص رجعوا إلى النجيلة ونصبوا عرضيهم
هناك وحضر الألفى تجاههم فركبوا لمحاربته وكانوا جمعا عظيما فركب
الألفى بجيوشه وحاربهم ووقع بينه وبينهم وقعة عظيمة انجلت عن
نصرته عليهم وانهمزام العسكر وقتل من الولاة وغيرهم مقتلة عظيمة

ولم يزالوا في هزيمتهم إلى البحر وألقوا بأنفسهم فيه وامتألاً البحر من طراير الدلائية ، وهرب كتحدا بك وطاهر باشا إلى بر المنوفية وعدّوا في المراكب ، واستولى الألفى وجيوشه على خيولهم وخيامهم وحملاتهم وجبيناناتهم ... »

وبذلك أحرز الألفى نصراً محلياً في النجيلة شجعه على معاودة حصار دمنهور ولكنه أخفق في ذلك ودافعت دمنهور دفاعاً أوهن قوى المماليك وكان ما أظهره الأهالي من الشجاعة والمشاركة سبباً في إحباط خطة المماليك وإضعاف شأنهم أمام السلطات التركية *

ثم انقسم المماليك فليجأ أنصار الألفى ينشدون تأييد الانجليز وانصرف أصحاب البرديسى يطلبون صداقة الفرنسيين ، وفي تلك الآونة المشحونة بالأحداث مات البرديسى فزالت بذلك عقبة كأداء ، وبعد شهرين مات الألفى ، وقيل أنه حين أحس بدنو أجله قال : « قضى الأمر وخلصت مصر لمحمد على »

وأخذ محمد على يستعد للقضاء على المماليك فأعد حملة لمقاتلتهم في الصعيد ، وجعل قوامها ثلاثة آلاف من المشاة وثلاثة آلاف من

* قال مانجان في كتابه « تاريخ مصر في حكم محمد على » أن دفاع دمنهور المجيد جدير بالتسجيل في تاريخ مصر الحربى ، وقد تولى أهلها الشجعان وخدمهم الدفاع . . إلى أن تسكل دفاعهم بالنجاح فكان له تأثير كبير في افساد خطة الباب العالى

الفرسان ، وست سفن مسلحة وغادر القاهرة في ١٢ فبراير
سنة ١٨٠٧

وقصد المنيا ، واستخدم أساليب السياسة قبل أن يطاق بنادقه ،
إذ أرسل إلى المماليك يطلب إليهم الصلح بينما كان يجتذب إليه
الأعراب ويستميلهم بالمال - وكانوا حراس المعسكرات - فهدوا
له دخول المدينة فانقض على المماليك وفاجأهم وأوقع بهم شر هزيمة
وامتلك قواعدهم في المنيا وأسيوط

وقد أوتيت عمليات الصعيد حين سمع محمد علي بتدوم الحملة
الإنجليزية على مصر فاتجه لملاقاتها - وسيجي الحديث عنها مفصلاً -
حتى تم له التوفيق وقد كان من نتائج إخفاق تلك الحملة أن نهضت
الروح العسكرية والوطنية في نفوس الشعب وذاقت مصر طعم النصر
فازدادت شهيتها وتفتحت آمالها وازدهرت ، وكان من أثر ذلك
أيضاً رضا السلطان علي محمد علي - واغتباطه بانتصار الجيش
المصري - فأعلن إليه ولده (إبراهيم بك) وأعلنه بالرضا العالي ...
غير أن محمد علي واجه موقفاً مروعاً كان الخطر فيه هذه المرة
كامناً في بعض أوائف جيشه الذي كان يجمع عناصر غير نظامية
مجبولة على الفرضي والإخلال بالضبط والربط ، وهؤلاء هم جماعات
الدلاة والأرنؤاد الذين تهادوا في العنف والفوضى والصيان وقد

كان آخر ما قاموا به مظاهرة عنيفة يوم ٢٨ أكتوبر سنة ١٨٠٧
نفشى محمد على وقوع الفتنة والاضطراب وأوجس منهم خيفة
فانتقل إلى القلعة ، بينما امتد لهب الفتنة واضطربت العاصمة وساد
فيها الهرج والمرج وضاعت مقاليد الأمن والنظام ... ولم ينقذ
البلاد من هذه الفتنة الحقاء غير نشاط الزعماء إلى مكافحتها ،
فقد جمعوا من الأهالي أتوات ليدفعوا إلى الجنود بعض
رواتبهم ؛ فبدأت الأحوال وانتظمت الأمور غير أن محمد على لم
يتغاض عن ذلك الخطر ولم يترك هذه الروح الشريرة المهددة التي هزت
الأرض تحت عرشه وكادت أن تقتلعه ، فنفي زعماء الحركة وقرر
التخلص من العناصر الرديئة الفوضوية وإنشاء جيش جديد حتى
يستقر النظام وتستقيم أمور البلاد

وقد استطاع محمد على أن يقضى على فتنة الجند وأن يضع من
التدابير ما يكفل استقرار الأحوال بين عساكره ، ثم خطا خطوة أخرى
نحو الانفراد بالسلطة والنفوذ فعزم على التخلص من « زعماء الرأي
العام » وهم الذين ساعدوه على الوصول إلى الحكم ووقفوا إلى جانبه
في أوقات الشدة وسندوه حين كان مقبلا على السقوط ... إذ
لم يشأ أن تكون هناك قوة إلى جانبه تملك التحكم فيه والإملاء عليه ،
وقد كان لهؤلاء نفوذ ملحوظ لدى الشعب فلم يشأ محمد على أن يدع

هذا السلاح الرهيب المصلت عليه، والذي يملك أن يدق عنقه، وأراد أن يقضى هذه القوة ويتخلص من كل منافس له في قلب الشعب وفي دائرة الحكم، وقد كان له ما أراد فأحدث الواقعة في صفوفهم وساعده ما ظهر بينهم من خلاف على التخلص منهم، وحطّم ذلك السلاح الرهيب الذي كان يعكر صفوه ويقلق مشاعره

ثم أراد محمد على أن يقضى قضاء نهائيا على المماليك ويستريح إلى الأبد من شر مكائدهم وخطر نفوذهم؛ وقد كان كل ما فعله معهم حتى ذلك الوقت لا يزيد في نظر المؤرخين عن «تقليم الاظافر» فبدأ معهم جهاداً جديداً ١١

وراح يجرب معهم السياسة ويدبر لهم المكائد فاستمال إليه أنصار الأتومي الذين أقنعهم البجيزة وعين لهم إيراداً خاصاً غير أن الغالبية من المماليك أرجسوا منه خيفة وأدركوا ما وراء الأكمة فوحّدوا ما بينهم وجمعوا شملهم وواجهوه بالعداء فسير إليهم جيشاً جراراً أنزل بهم الهزائم والإنكسارات المتوالية حتى أخضع الصعيد؛ ثم استضاف زعماءهم وزين لهم طيب الإقامة في القاهرة حتى خيل لهم هدوء الحال وصفاءؤه

ثم أزمع محمد على إرسال حملة إلى بلاد العرب - سيجيء الحديث عنها مفصلاً - فتهيب الموقف الذي ينتج من وجود المماليك حين

تكون جنوده خارج الديار ، وراعاه الخطر المكنون الذى ينتظره
بسيبهم فعزم على التخلص منهم نهائيا

وفى أول مارس سنة ١٨٤١ أقام محمد على مهرجانا عظيما احتفالا
بتعيين نجله طوسون فى قيادة حملة الحجاز ، ودعا المماليك إلى شهود
المهرجان فقدموا فى الساعة المحددة الى القلعة

وتحدثت « مذبحه القلعة » وقضى على رؤساء المماليك ، وكان لهذا
الحادث أثره فى ممالك الصعيد الذين لاذوا بالفرار إلى النوبة وندقلة
وبهذا انتهى محمد على من ألد أعدائه وقضى على أقوى خصومه

ولسنا فى فسحة من المجال لمناقشة هذه الواقعة التى اختلف
المؤرخون فى الحكم عليها ، فقد رأى البعض أنها تتنافى مع الانسانية
ومبادئ الجندية وأصول الخصومة ولسكنها كانت خلاصا للبلاد
من فوضى يقاتل لا محمد عقباه ، ولا يضير رجل الحكم أن يرتكب
المخالفات إذا كان فيها مصلحة وطنه . .

وقد جاء منطق الحوادث مبررا لما فعله محمد على فى كل عمل يصير
مشروعا متى كان لازما لصالح البلاد ، والشرف لا يكون هنا فى
الوفاء بالعهود والتمسك بالاتفاقيات ولكنه الاخلاص لمصالح
الشعب . . ومهما كان من أمر هذا العمل فقد انتهى باستقرار

الأمور في مصر ، وأصبح لها – لأول مرة بعد جلاء الفرنسيين –
حكومة مستقرة

وقد ذكرت سمو الأميرة شيوه كار في كتابها – بلادي* – أن
رجلا من جنوا يدعى Medrici كان طبيبا لمحمد علي فتحدث اليه في
أمر هذه الواقعة فقال محمد علي :

« فليسا محني الله القسادر على كل شيء... إنني أعرف أن هذه
المنذبة أمر فظيع ولكن كان يجب سفك هذه الدماء التي كان مقدرآ
لها ذلك . . إن إنقاذ مصر كان يحتمه .. »

*'' Mon pays, le renovation de l'Egypte, Mohamed Ali

إخفاق الحملة الانجائزية

فى القرن الماضى كانت مصر تفاحة خلاف بين فرنسا وانجلترا وقد كسبت فرنسا الشوط الاول حين غزا نابليون بوناپرت مصر بحملته المشهورة ، ولكن نشاط انجلترا لم يفتر فى أى وقت وأخذت تترقب الفرص وتنتظر الاحداث المناسبة لتدخلها ، ولذلك أخذت فى مساعدة المماليك وحاولت أن تفتح صدر الباب العالى لهم ، فيقصى محمد على عن مصر وتعود دولة المماليك

وقد قدمت انجلترا فى ذلك الشأن اقتراحا يقضى بتعين محمد بك الألفى واليا على مصر وإنشاء قوة عسكرية نظامية تحت اشراف بعثة إنجليزية وبقيادة ضابط إنجليزى حتى يضمن هدوء الحال فى مصر فيتمكن الالى من دفع جزية كبيرة للاستانة قدرها ١٥٠٠ كيس (٧٥٠٠ جنيه)

ولكن هذا المشروع قضى عليه بسبب موقف مصر حين وصلتها حملة قبوطان باشا للتنفيذ ، وبسبب ما جدد فى العلاقات الدولية ، فان تركيا كانت أكثر ميلا إلى فرنسا ، وانحازت إلى

جانبها صراحة ، وازاء ذلك قرر الانجليز إرسال حملة إلى مصر لتصفية الموقف فيها ، كما كان في ذلك العمل رد على موقف تركيا وذلك بفكرة القضاء على نفوذها في مصر وتمزيق امبراطوريتها

وفي شهر مارس سنة ١٨٠٧ أقيمت السفن الانجليزية إلى مياه الاسكندرية ونزلت القوات إلى الشغل بالتواطؤ مع محافظ المدينة * الذي أضلته الرشوة فاستسلم ومعه ثلاثمائة جندي . وتم للانجليز الاستيلاء على الاسكندرية بدون مقاومة ، وقد ذكر الجبرتي « أن ورودهم - أي الانجليز - كان مساعدة ومعاونة للآل في على أخصامه باستدعائه لهم واستنجاهه بهم ، وسبب تأخرهم في المجيء لما كان بينهم وبين العثماني (السلطان) من الصلح ، فلما وقعت النفرة بينهم وبينه انتهزوا الفرصة وأرسلوا هذه الطائفة ، وكان الآل في انتظار حضورهم بالبحيرة ، فلما طال عليه الانتظار وضاعت عليه البحيرة ارتحل بجيوشه مقبلاً وقضى الله بموته باقليم الجيزة ، وحضر الانجليز بعد ذلك إلى الاسكندرية فوجدوه قد مات فلم يسعهم الرجوع فأرسلوا إلى الأمراء القبليين (أي المماليك الموجودين بالصعيد) يستدعونهم ليسكنوا مساعدين لهم على عدوهم ، ويقولون لهم إنما

* هو أمين أخا من ضباط الاسكندرية وقد أغراه قنصل انجلترا بما دفعه اليه من المال ، وقد كانت تركيا تعتبر الاسكندرية مركزاً منفصلاً عن ولاية مصر وتضع فيها حاكماً من قبلها

جئنا إلى بلادكم باستدعاء الألفى لمساعدته ومعاونته . . . الخ ،
وكانت الحملة الانجليزية مكونة من ستة آلاف مقاتل بقيادة
الجنرال فريزر - وهذا رقم لا يصلح لحملة ترمى إلى إخضاع مصر فقد
كانت حملة بونابرت مكونة من ٣٦ ألف مقاتل - غير أن ما اتضح
من اتفاق الماليك مع الانجليز جعل هؤلاء يكتفون بذلك العدد
المتواضع مطمئنين إلى تأييد قوات الماليك ووجود عدد كبير من
المصريين على استعداد لمؤازرتهم

وفي تلك الأثناء كان محمد علي يقاتل الماليك في الصعيد ، فلما
سمع بخبر الحملة الانجليزية لم يشأ أن يصبح بين نارين ، فيحارب في
جبهتين ، ولذلك رأى أن يؤجل الجهاد الأصغر - ضد الماليك -
لينهض بالجهاد الأكبر - ضد الانجليز - وقضت الضرورة السياسية
والإدراك الحربى إلى مهادنة الماليك فقبل أن يترك لهم حكم الوجهه
القبلى فى مقابل أدائهم خراج الصعيد ، وأن يعاونوه فى مقاتلة
الانجليز . . أما من ناحيتهم فقد أمضوا هذه الاتفاقات دون أن
يكونوا جادين فى إخلاصهم له ، غير أنهم لم يستسيغوا أن يظهروا
انضمامهم للانجليز وتأييدهم لعدو خارجى ضد أهل البلد ، فأثروا
التريث وانتظار النتائج

وكانت خطة فريزر أن يزحف الماليك من الصعيد إلى القاهرة حتى

يتم لقواته أن تسيطر على الثغور ، ثم يقود الطرف الآخر من
الكباشه إلى القاهرة

واعتزم البدء برشيد فأنفذ اليها ألفى مقاتل تحت إمرة الجنرال
ويكوب الذى بدأ الزحف فى ٢٩ مارس ١٨٠٧ فقطع الطريق اليها
فى يومين ثم تأهب لدخول المدينة فى اليوم الأخير من شهر مارس
وكانت حاميه رشيد لا تزيد عن ٧٠٠ جندى غير أن حاكم
المدينة - على بك السلانكلى - كان رجلاً شجاعاً أميناً لم تنفع معه
ضروب الغواية والخداع وكان رجلاً بصيراً فصمم على خداع
الانجليز وقرر أن يفاجئهم . . وخشى أن تتكرر مأساة تسليم
الاسكندرية فعمد إلى مرا كبه فأبعدها إلى الشاطئ الشرقى حتى يصبح
البحر خاف جنوده فلا يجدون مفراً من القتال إلى النهاية . . وكان
من أثر فعلة « طارق » هذه أن أصبحت الخطة قوية ومهيأة للتنفيذ . .
وتراجعت الحامية إلى داخل المدينة حسب الخطة الموضوعة ، واستعد
الأهلون واعتصموا ببيوتهم . . . هذا بينما تقدمت القوات الانجليزية
فلم تر داعياً لإطلاق النار ولم تجد أثراً للمقاومة غير أن وقت الأمان
والاطمئنان لم يطل ، فقد أعطيت إشارة الانذار ، وهبت البلاد
بجنودها وأهلها تدفع عن قداساتها وكرامتها ودارت الدائرة على
الغزاة ، وكانت المفاجأة تامة والهزيمة كاملة . .

وقد جاء في رواية الجبرتي لهذه الواقعة أن « أهل البلدة ومن معهم من العساكر كانوا متنبهين ومستعدين بالازقة والعطف وطيقان البيوت فلما حصلوا بداخل البلدة ضربوا عليها من كل ناحية وألقوا ما بأيديهم من الأسلحة وطلبوا الأمان فلم يلتفتوا إلى ذلك وقبضوا عليهم وذبخوا منهم جملة كثيرة وأسروا الباقين وفرت طائفة منهم... » فأهل رشيد بدأوا حرب الشوارع قبل أهل ستالينجراد بأكثر من قرن ، وفعلوا في عام ١٨٠٨ ما أوصى به الجنرال روديمسيتف* في عام ١٩٤٢ ،... وفازت روح المقاومة الشعبية قبل أن يتحدث كبار القواد عن « حرب الأمم » و « جبهة المدنيين »... وهناك أيضا ملاحظة جديرة بالتسجيل وهي أن أهل رشيد - على قلة عدد جنودهم - لم يطلبوا من القاهرة مدداً لأنهم كانوا يعلمون ما طبع عليه جنود الأرنؤود والدلاة وأخلاط الأتراك من الفوضى وضعف الروح المعنوية وعدم الانقياد فلم يحب قادتهم أن يكون جنودهم خليطاً مفسكاً... وفي هذه الملاحظة تتضح أهمية الاعتزاز بالعنصر والاستعانة بالنظام وروح الجندية وتفضيل ذلك عن زيادة العدد وكثرة المعدات .

* من قواد الروس في الحرب العالمية الثانية ونظريته في القتال « الدفاع شارطاً فشارطاً وبيتاً فبيتاً وطابقاً فطابقاً . . »

انتصر المصريون على الانجليز في واقعة رشيد ، وذاقت مصر
كأس الانتصار العسكري العذب واهتزت البلاد بأخبار هذا الحادث
الكبير ، وقد وصف هذه الاجتفالات الجبرتي - راوية ذلك العهد
فقال « أشيع وصول رؤوس القتلى ومن معهم من الأسرى إلى بولاق
فهرع الناس إلى الذهاب للفرجة ووصل الكثير منهم إلى ساحل
بولاق وركب أيضا كبار العسكر ومعهم طوائفهم لملاقاتهم فطلعوا
بهم إلى البر وصحبتهم جماعة العساكر المتسفرين معهم فأتوا بهم من
خارج مصر ودخلوا من باب النصر وشقوا بهم من وسط المدينة
وفيهم فسيال (ضابط) كبير وآخر كبير في السن وهما راكبان على
حمارين والبقية مشاة في وسط العسكر ، ورؤوس القتلى معهم على نبايت
وعدها أربعة عشر رأسا ، والأحياء خمسة وعشرون ، ولم يزلوا
سائرين بهم إلى بركة الأزبكية وضربوا عند وصولهم شنكا
ومدافع وطلعوا بالأحياء مع فسيالهم إلى القلعة وفي يوم الاثنين وصل
أيضا جملة من الرؤوس والأسرى إلى بولاق فطلعوا بهم على الرستم
المذكور وعدتهم مائة وواحد وعشرون رأسا وثلاثة عشر أسيرا
وفيهم جرحى

وقد تجلت روح مصر في هذه الفترة العصيبة ، وكان انتصار رشيد
بمباشرة الشعلة التي ألهبت نار الوطنية في البلاد جميعا وبعثت روح

الجهاد والتضحية ، فظهرت قوة الشعب المعنوية الرائعة ، واستهان
الناس بأمر الانجليز وانتهت الهيبة التي كانت معروفة للأجانب ،
فذكر الجبرتي أن « أهل البلاد قويت هممتهم وتأهبوا للبروز والمحاربة
واشترى الأسلحة ونادوا على بعضهم بالجهاد ، وكثر المتطوعون
ونصبوا لهم بيارق وأعلاما ... »

وقد تمكن محمد علي من إعداد حملة كبيرة بعث بها إلى رشيد ،
فقد كان يعلم أن جهود الانجليز لا تنتهي عند هذا الحد ، وأنهم
لا بد أن يستأنفوا القتال أملا في استعادة مركزهم وإنقاذ هيبتهم وإتمام
ما جاءوا من أجله ... ولم يكتف بهذه الحملة بل أخذ ينظم الأعمال
الدفاعية في قلب البلاد ، ويعنى عناية خاصة بخطط الدفاع عن القاهرة
ونستطيع من مراجعة أعمال محمد علي في تلك الفترة أن نتمين
جانبا من جوانب هذه الشخصية الفذة والعقلية المستنيرة ، وأن نشهد
ناحية الكفاية العسكرية في صفاته ، فهو جندي بفطرته ، يفهم في تقدير
كل موقف ويناقش حلول أعدائه ، فقد رأى أنهم لا بد أن يعاودوا
حملتهم على رشيد لاستعادة الشرف المفقود وإنقاذ السمعة التي أضاعتها
الهمزية ولذلك بعث إمدادا كبيرا إلى رشيد لتقوية حاميتها
وهو قائد يعرف أهمية استغلال النجاح فرأى ضرورة المبادرة
بأن تسارع قوات رشيد في العمل حتى لا تعطى فرصة طويلة للإنجليز
فيزيدوا استعداداتهم

وهو رجل حكم يدرك أهمية العاصمة ، قلب البلاد ، وأنها هدف الغزاة دائماً ، فيعمل على تقوية استحکاماتها وجعلها بأمن من الغزو ، حتى إذا نجحت عمليات الانجليز في الشمال وأقبلوا نحو العاصمة امتنعت عليهم وردت حملاتهم ، وبذلك تسلم الولاية ولا يسقط الوالى .

كما أنه كان رجلاً استراتيجياً لا يجهل مبدأ الدفاع الذى يقول بجعل المناورات بعيدة عن الغرض ولذلك جاءت خطته للدفاع عن القاهرة مثلاً ممتازاً لعمل الدفاعات

وهو قبل كل شيء عسكري خفيف ، ومعاصر لنا بليون ، يعرف خطر الحرب في جهتين ويعمل مثله على تفرقة أعدائه حتى يكون لكل منهم دور ... ولهذا هادن المماليك حتى يفرغ من الإنجليز ، ولكل موعده

كانت الحملة التي أرسلها محمد باشا إلى رشيد تتكون من قولين سارا على جانبي شاطئ النيل يتولى قيادة أحدهما طبوزا أوغلي (كتيخدا بك) بالبر الشرقي ، ويتولى قيادة الآخر حسن باشا ، بالبر الغربي ، فلما قارباهما اتجه القول الأول ناحية برنبال بالشاطئ الشرقي ، ويم الثاني شطر الحماد .. على أنه ليس بين المؤرخين محدث حربي يستطيع أن تثبت منه أسباب تخلف محمد على عن قيادة جنوده

أو عدم ذهابه إلى أرض المعركة للإشراف على سير العمليات الحربية وأغلب الظن أنه اضطر لترك ذلك حيث كان معنياً باستحكامات القاهرة ، التي ستكون مأواه في آخر مراحل الحرب إذا ساءت الظروف ، وأنه كان يعالج مسألة المالك ، وحاجيات الجنود ، ومسائل الميرة والذخيرة والاموال والأمدادات الحربية

وقد حدث ما توقعه محمد علي من خطط الإنجليز ، ففي ٣ إبريل زحف الجنرال سيتورات على رأس أربعة آلاف مقاتل متجهاً إلى رشيد ، وقد احتلت كتيبة من قواته بلدة الحماد (جنوب رشيد) فقد كانت الخطة ترمي إلى تطويق رشيد ومنع وصول الإمداد إليها من القاهرة ولذلك أيضاً تم احتلال آكام أبي مسدور وهي على مسافة الضرب من رشيد وبدأت عمليات الحصار

وضربت المدينة بيران المدفعية التي ألقت أكثر من ٣٠٠ قنبلة شديدة ، وكانت حامية رشيد مكونة من ٣٠٠ من الفرسان ، ٨٠٠ من الأرناؤط وألف من الأهالي المسلحين ، وأخذ هؤلاء يصدون أربعة آلاف كامل الاستعداد ، غير أن الأهالي كانوا يستندون إلى التحصينات والمواقع المنيعه وبسدون سبل الغزو رغم ما استهدفوا له من ويلات

ولما بلغ العناء حده لدى الجنرال سيتورات كتب إلى قائده

الجنرال فريزر فى الاسكندرية يقول « إن ما أنبأتمونى به من قرب حضور المماليك جعلنى أثرى فى الهجوم على رشيد ، لقد ألحقنا بالمدينة أضراراً كبيرة ، وقد بلغ ما أطلقناه عليها من المدافع البعيدة المرمى وحدها ٣٠٠ قنبلة ، على أنه يتبين لنا أن الأعداء لا يكثر ثون بالمصائب التى تنزل بهم ، ونظراً لسعة خطوط دفاعهم وطبيعة مواقعهم لم أر من الحكمة أن أتعجل باقتحام المدينة فى انتظار النجدة ... »

وحدث تراشق بالمدفعية عند الحماة بينما كان الانجليز يشددون الحصار على رشيد دون أن تقضى قنابلهم على روح المدينة ، ثم أقبل المدد من القاهرة وحدث الاصطدام الأول بين حسن باشا وقوات الانجليز الامامية فى الحماة فانهمزمت القوات الانجليزية ولم ينقذها غير وصول إمدادات سريعة بقيادة الكولونل ماك لود الذى باشر العملية وأعاد النظر فى أوضاع قواته ، فجعل قوات الملاجور وجلسند مرتكزة على شاطئ النيل ، وقوات الكابتن تارلتون على بحيرة أدكو ، ووضع بينهما قوات الملاجور مور

أما قوات طهوز أوغلى فقد عبرت النيل إلى الضفة اليسرى وانضمت إلى قوات حسن باشا وبدأ الجميع بمجهوداً موحداً كان أول أغراضه الهجوم على الحماة وهنا رجحت كفة الجنود المصرية ، وأصبح لها التفوق العددي فلم يجد القادة الانجليزى بداً من الانسحاب ، واستأذن

فى ذلك رؤساءه فأقروه على خطته ، وفى تلك الأثناء كانت الفرسان المصرية قد قطعت المواصلات بين الحماد ورشيد فأخفقت خطة ماك لود وتفرق شمل قواته وأصابته هزيمة مريرة فقد فيها ٨٠٤ أسيراً بينهم عدد من القواد ، وأصبحت الحماد معقلاً للقوات المصرية وكانت هذه الواقعة نصراً عظيماً للقوات المصرية وصفها الجبرقى بأنها كانت مقتلة كبيرة وأن الانجليز « انجلوا عن متاريس رشيد وأبى مندور والحماد ، ولم يزل المقاتلون من أهل القرى خلفهم حتى توسطوا البرية وغنموا ضمايتهم وأساليبهم ومدافعهم ومهراسين عظيمين . . . »

وبدأت عمليات المطاردة وفيها أبلى الفرسان بلاء حسناً وفتكت الجنود المصرية بفلول الانجليز المنسحبين وأسروا منهم عددا كبيرا وأدرك الجنرال ستيوارت ، وهو بين قواته المرابطة جنوب رشيد ، ما وصل اليه الموقف من سوء وشعر بالنكبة التى تهدده فقرر الانسحاب فوراً وبذلك رفع الحصار عن رشيد ، فخرجت قوات الدفاع تتبعه ، وطارده الأهالى إلى أبى قير ومنها أبجر إلى الاسكندرية أما فى الاسكندرية ، فقد بلغ فريرز أنباء الهزيمة المريرة فى رشيد فأخذ يضع الخطط لتحسين الاسكندرية وقطع سد أبو قير لتحيط المياه بالمدينة فيتعذر غزوها ، وحاول إغراء المماليك فصدوا عنه بعد

ما حل به من الهزائم ، فساء مركزه كثيرا وخصوصا بعد ما ئس من معاونة الممالك وأصبح يخشى نيات محمد على ، ولذلك أسرع فبعث رسلة لطلب الصلح

ولا شك أن طلب شروط الصلح كان مفاجأة لمحمد على الذى لم يتوقع أن نأى النتائج الفاصلة بهذه السرعة ، ولذلك لم يتسرع فى الرد على الدعوة وقرر أن لا يدخل فى مفاوضات قبل أن يصل بجنوده إلى دمنهور خشية أن يكون فى الأمر خداع ، ولكن رسالة فريزر كانت صادقة الوعد بعد أن فقد كل أمل فى البقاء ، كما أن الموقف الحربى فى أوروبا كان لا يسمح بعمليات أخرى ، ولذلك عدلت إنجلترا عن غزو مصر وبعثت فى طلب قواتها من الاسكندرية

وبلغ محمد على دمنهور فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٠٧ على رأس أربعة آلاف من جنوده وهناك التقى بالجنرال شربروك ، مندوب الجنرال فريزر ، ورئيس وفد المفاوضة ، وقد بحثا موضوع جلاء الإنجليز عن مصر وإبرام الصلح ، وتم ذلك بتوقيع معاهدة الجلاء وقد جاء فيها « بما أن الجنرال فريزر قائد القوات البرية لصاحب الجلالة البريتمانية والكبتن هلول قائد الأسطول الإنجليزى المرابط تجاه السواحل المصرية قد خولا الجنرال شربروك والسكابتن فلوز من ضباط البحرية الإنجليزى سلطة إبرام الإنفاق الخاص بالجلاء

عن الاسكندرية فقد اتفق كل من صاحب العظمة محمد علي باشا والى مصر والجنرال شربوك والمكاتب فلوز على الشروط الآتية :

(١) توقف فوراً الأعمال العدائية من الجانبين وتجاوز القوات البريطانية عن الإسكندرية في مدى عشرة أيام من التوقيع على هذه المعاهدة وتنسحب من جميع القلاع والاستحكامات والمنشآت وتتركها بالحالة التي هي عليها الآن ويسلم صاحب العظمة محمد علي باشا للقواد البريطانيين صهره مصطفى بك وعمه اسحق بك ومهر داره سليمان افندى بصفة رهائن يبقون على ظهر إحدى السفن الحربية الانجليزية إلى أن يتم تنفيذ المعاهدة

(٢) جميع أسرى الحرب الإنجليز وكذلك الأفراد الذين التحقوا بخدمتهم من الأقرباء يطلق سراحتهم ويرسلون بطريق النيل إلى بوغاز رشيد حيث يبحرون على سفينة انجليزية

(٣) يصدر عفو عام عن سكان الاسكندرية أو غيرهم من الأهالي لما وقع منهم في الماضي ويؤمنون على أرواحهم وأملاكهم لكونهم اضطروا بحكم الظروف إلى اتخاذ الطريق الذي سلكوه

(٤) نظرا لتفرق الأفراد الأرقاء الملاحقين بخدمة الجيش البريطاني ووجود بعضهم على مسافات بعيدة فيبقى مندوب الإنجليز في الاسكندرية بعد الجلاء عنها ليتسلمهم كلها ظهورا ، ولهذا المندوب أن يحصل من

صاحب العظمة على كل حماية ومساعدة لأداء مهمته في إحضار هؤلاء
الأفراد ... الخ

وبهذا تم جلاء الإنجليز عن الإسكندرية في ١٩ سبتمبر سنة ١٨٠٧
« ودخل اليها كتنخدا بك (طبوزاوغلى) ونزل بدار الشيخ
المسيري » على حد ما جاء برواية الجبرتي وبهذا طويت صفحة الحملة
الإنجليزية على مصر

ووضع محمد علي يده على الإسكندرية وضمها إلى جماعة الوطن
المصري

وكان من نتائج هذه الحملة أن أعجب السلطان محمود بانتصار الجيش
المصري فأعلن رضاه على الوالي ورد إليه ولده (ابراهيم باشا) وأنعم
عليه بالآباء .

ومهدا فخاصت مصر من خطر الغزو الأجنبي ولم يبق أمام محمد
على سوى القضاء على خطر العناصر المعادية في الداخل ، فقضى على
المماليك في مذبحة القاعة وأخذ فتنة الجند وطرده زعماءها ثم تخلص مما
أسميناه « الزعامة الشعبية » وبذلك تم القضاء على الخصوم وخلص الجو
لهذا الحاكم العظيم ليبيث في بلاده حياة جديدة تنعم فيها بالقوة
والاستقلال والكرامة ..

إخماد حركة الوهابيين

لم يكن الأمر قد استتب من جميع نواحيه لمحمد علي في مصر حين دعاه السلطان للقيام بحملة شاقة طويلة الأمد كثيرة النفقات أريد بها قمع حركة الوهابيين في بلاد العرب ، ففي تلك الأثناء كان محمد علي يصارع خصومه ويعنى بالمسائل الداخلية ويضع النظم والتشريعات التي تنهض بالبلاد ويعد جيشه وما يحتاجه من موارد ومعدات ، ولم يكن قد مضى على ولايته عامان - كانا مليتان - بالأحداث الجسام من قتال مع المماليك وتطهير في محيط الجند إلى دفع الغزو الأجنبي - فإذا وصلته دعوة السلطان لإنفاذ حملة إلى الحجاز أخذ يعتذر بما يواجهه من مشكلات حتى وصله رسول الأستانة في سبتمبر سنة ١٨١٠ م لحثاً في الرجاء فلم يجد محمد علي مناصاً من القبول وبدأ يستعد لأول حملة خارج الديار المصرية ، وكتب عدة رسائل إلى الأستانة يعبر فيها عن ولاءه وامتناله لما كلفه به السلطان وتمنيه للفرصة التي تمكنه من أداء ذلك الواجب ...

ولم تسكن المشا كل الداخلية هي كل ما يدفع محمد علي باشا إلى التردد في قبول هذه المهمة فإن الحملة ذاتها كانت تتطلب جهوداً كبيرة

لا تسمح بها حالة الأمة الناشئة فقد كان ضرورياً أن تعد حملة كبيرة مسلحة بأمضى الأسلحة ومجهزة بالمؤن والمعدات التي تكفل لها قطع الفيا في الشاسعة والتغاب على وعشاء الطريق وشدة القيظ وندرة المياه حتى تصل في حالة طيبة فتبدأ في مواجهة خصم قوى باسل يستعد للدفاع عن أرضه التي لا يقدر شيئاً قدرها ولا يعرف دافعاً للقتال أشد منه في سبيل الوطن والحرية وكرامة العقيدة

ولكن محمد علي رضى أن يقوم بهذه المهمة رغم ما يحيط بها من صعاب ورغم أن مركزه لم يكن يشجع على التسرع في المضي فيها وحمل مسؤولياتها ونتائجها ، غير أنه وجد لمصر صالحاً في القيام بهذه الحملة ، وترضية للباب العالي وإعلاناً عن الولاء والإخلاص ، كما أنه وجد أن هبة تركيا قد ضاعت حين أخفقت حملاتها فأراد أن ينجح حيث أخفقت تركيا

ووافق أن يقوم بهذه المهمة الشاقة ويخوض الحرب ضد الوهابيين تثبيتاً لمركزه في مصر وإعلاء لشأن بلاده فلا يصبح والياً يعزل أو ينقل وإنما حاكماً ملحوظ المكانة ، ونداً حليفاً للسلطان ، ولا بد أن محمد علي قد فكر في خطر انتشار الدعوة الوهابية وما قد يصيب مصر منها إذا قدر لها النجاح وتمكن قادتها من القيام بفتوح وغزوات المنشر مبادئهم وإخضاع البلاد المجاورة

وأراد محمد على بهذه الحملة أن يؤدي مهمة دينية جليلة فتسمو
مكانته ويكسب عطف العالم الإسلامي حين ينقذ الحرمين الشريفين
ويعيد مناسك الحج ويؤمن سبله

وفسكّر في الشهرة التي واثت على بك الكبير حين بسط نفوذه
من قبل على بلاد الحجاز فأطلق عليه شريف مكة لقب «سلطان مصر
وخاصان البحرين»

كما أنه رأى في ذلك فرصة مواتية ليتخلص من العناصر الرديئة
المشاغبة في جيوشه ، فينتهي إلى الأبد من الالة والارنؤود
وأشباههم ، ثم يأخذ في إعداد جيش جديد ، جيش نظيف يدفع به
نهضة مصر ويعلى قدرها

ولم يجد غضاضة أو اعتراضا على فرض ضرائب جديدة ما دامت
ستبذل في جهاد ديني ومن أجل غايات شريفة يضعها المسلمون
في اعتبارهم الأول

ولذلك كله قرر محمد على أن يقوم بهذه الحملة « لرفع المذلة
والمهانة عن زوار الكعبة والقبلة الشريفة معقد آمال المسلمين ومتعبدتهم ،
ولإنقاذ الأرض المقدسة ... »

وأما الوهابية التي أريد القضاء عليها فهي مذهب المتطرفين في
الإسلام وشيخ هذا المذهب هو محمد بن عبد الوهاب من أهل العينة

في نجد ، وقد عنى بالمسائل الدينية في صباه ودرس تعاليم الإسلام بتعمق وراعه انحراف الكشيرين عن أصوله الدقيقة واستنكر ما رآه من البدع الى كانت فاشية وأراد الدين خالصاً من الشوائب ، فارتداء الحرير وشرب الدخان وإقامة الزارات ونصب القباب على القبور تعد في نظر الوهابيين مخالفة لأحكام الدين، والدعوة في حد ذاتها صالحة غير أن تطبيقها كان متطرفاً مغالياً فيه ، وقد انحرف أنصار الدعوة عن مبادئها السليمة وأسرفوا في ارتكاب الفظائع واختراع الممنوعات

وقد انتقل مركز الحركة من الحساء إلى الدرعية على أثر حادثة غضب لها حاكم الحساء ، وفي الدرعية وجدت مجالا خصبا حيث صادفت الدعوة هوى من نفس حاكمها محمد بن سعود ، واستندت الدعوة إلى قوة السيف وأخذت تنتشر تدريجيا حتى عمت بلاد نجد ثم تجاوزتها في عهد خليفته عبد العزيز بن سعود فبلغت مشارف العراق والبصرة وكر بلاء مما أثار سخط المسلمين ، واتخذت الحركة شكل الأعمال العدائية حتى امتدت يد الثوار إلى القبور والمساجد والأضرحة التي يكرمها عامة المسلمين

وقويت الحركة الوهابية فتغلبت على محاولات شريف مكة وضدت حملات حاكم العراق ، وامتد نفوذها إلى مسقط وشواطئ

الخليج الفارسي ثم سقطت مكة في أيدي الوهابيين عام ١٨٠٢ وكتب
عبد العزيز بن سعود الى السلطان ينبئه بفتح مكة وهدم القباب ومنع
مجيء المحمل من دمشق أو القاهرة

ثم استولى الوهابيون على المدينة ونهبوا نفائسها - وكانت
لا تقدر بمال - وبلغوا في انتشار نفوذهم حدود فلسطين والعسير
ويمن ، وأصبح سعود بن عبد العزيز صاحب الأمر والنهي في جزيرة
العرب وانحسر ظل السلطان وانقشع نفوذه ؛ وأصبحت بلاد العرب
ملك السعوديين

عين محمد علي باشا ولده طوسون - وكان في السابعة عشرة
من عمره - قائداً للحملة ، وأقام معسكراً بحجة القبة جعله مركزاً
لرئاسة ، وقضى عشرة أشهر في إعداد الجنود والأسلحة
والقوات اللازمة ؛ وقد بلغ عدد الجنود ثمانية آلاف ، وأخذ يتدبر
مسألة النقل عبر البحر ، فشرع في بناء أسطول بحري ، واستورد
الأخشاب اللازمة وأنشأ ترسانة بولاق - وهي مصانع لصنع
المراكب - حتى أتم إنشاء ثمانية عشر مركباً كبيراً تكفي لنقل الحملة
وما يخصها من ذخائر ومؤون ومهمات

ولم ينس أهمية الإمدادات والتأمين لمثل هذه الحملة فعنى بهذه
الشئون كثيراً وعين مديراً للمهمات ، السيد محمد المحروقي ، وألحق به

طائفة من الصنائع من كل حرفة

وضم إلى جيش طوسون رجلاً أسكتلندياً ، يدعى توماس كيت
وعهد إليه بالاشراف على الشئون المالية

كما أنه - وهو معاصر نابليون - لم يقصر واجبات الحملة على
الناحية الحربية وإنما أرسل معها العلماء من أئمة المذاهب ، وخصوصاً
وأنها رسالة في جهاد ديني

وقدر طول السفر ووعرة الطريق وندرة الماء وشدة الوهابيين
- وهم في أوج قوتهم - فأعد لكل شيء عدته

وأدرك ما هو مقدم عليه من حرب شاقة إزاء خصم عنيد ،
وهو سعود الكبير ، الذي تدين له بلاد العرب بالخضوع ،
والذي أعد قواته وقبائله للدفاع ضد الغزو الأجنبي عن وطن الأعراب
الذي يفقدونه بكل شيء .. أدرك ذلك كله محمد علي فلم ينس أن
يستخدم الحكمة مع السيف ، ففاوض بعض العشائر وأغراها
بالمال والوعود وأوجد «الطابور الخامس» الذي مهد له وبذل كثيراً
من العون ، كما اعتمد على كثير من العرب وأشراف مكة وأهل
الحجاز وغيرهم من الناقمين على حركة الوهابيين فكانوا من العوامل
التي استطاع والي مصر أن يستفيد بها في غزوته التاريخية

وكانت الخطة أن تنتقل المشاة بالسفن من السويس إلى ينبع

وتسير الفرسان برا من طريق السويس فالعقبة حتى يتلاقى الطرفان
عند ينبع ومنها يبدأ الزحف

وأقلع الأسطول من السويس فى الثالث من سبتمبر سنة ١٨١١
بينما ترك الفرسان تحت قيادة طوسون

ووصلت الحملة إلى ميناء ينبع ونزلت المشاة إلى البر وحدث قتال
محدود هزمت على أثره حامية الميناء وتلاشت بين قتلى وأسرى
وهاربين . . هذا بينما تقدمت الفرسان واتصلت بالمشاة ، وبدأت
التجريدة المصرية فى الزحف نحو المدينة

وحدثت معركة فى بدر دامت ساعتين انهزمت على أثرها قوات
السعوديين وأسرعت بالتراجع الى وادى الصفراء حيث كانت الخطة
تقضى بالدفاع إستنادا على ما أعد من قبل من تحصينات واستحكامات
تقدمت قوات طوسون صوب وادى الصفراء ، من طريق اقتراب
ضيق ، وكانت قوات الوهابيين تتحكم فى طرق الاقتراب وتشرف
عليها من أمكنة مرتفعة حتى إذا لاحت لها قوات الغزو صوبت اليها
البنادق وأرسلت عليها وابلا من المقذوفات فوقع الاضطراب
بين القوات الأمامية التى كان جنود الأرناؤود فى مقدمتها ، ولم تساعد
هؤلاء روحهم الضعيفة على الثبات والمقاومة فتشتت شملهم وسارعت
اليهم الهزيمة ، وكاد أمر الحملة ينتهى إلى إخفاق مر فارتدت إلى ينبع

بعد أن خسرت أكثر من نصف عددها
ولم يتخذ الوهابيون الأهمية لهجوم مضاد أو لمطاردة ونطويق
القوات المتراجعة ولم يفكروا في الإسراع إلى مهاجمة ينبع في تلك
الاحوال السيئة التي كانت تعاني فيها القوات المصرية ويل الهزيمة
ووصلت أنباء الحملة إلى محمد علي وشخص اليه بعض القادة
والجنود ، ولكن عزيمة لم تقهر وسارع في إعداد حملة جديدة ،
ويقول الجبرتي في ذلك « لم يتزلزل الباشا ، واستمر على همته في
تجهيز عساكر أخرى ، وبرزوا إلى خارج البلدة . . »
وبناء على إرشادات محمد علي وتوصياته لابنه طوسون راح
هذا الأخير يغري رؤساء العشائر ورجال القبائل ويضمهم إلى جانبه
بالمال والعطايا فكانوا له خير عون في غزواته الثانية . .
فلما وصلت الإمدادات وانضمت اليه قبائل العرب تقدم إلى
الصفراء فاحتلها بغير قتال ، ووصف الجبرتي هذه العملية بأنها « تمت
بغير حرب ، بل بالمخادعة والمصالحة مع العرب ، وتدابير شريف
مكة . . » ثم واصل طوسون سيره حتى بلغ مشارف المدينة المنورة
بعد رحلة شاقة لاقت فيها جنوده الأمرين من حرارة الجو ووعورة
الطريق ، ولو أنه كان يتبع خطة مثلى إذ كان يسير في الليل ويريح
قواته بالنهار اجتناباً للحرارة الشديدة وإمعاناً في التستر . . وأخيراً

أطبق على المدينة محاصرها دون أن يطلق عليها نيرانه إحتراماً للحرم الشريف ؛ وانهاجا لخطه جديدة تنطوى على المفاجأة . . ذلك أنه أطلق الألغام تحت أسوار المدينة ثم فجرها فاقتعات جانباً من الأسوار وأحدثت الثغرة — على حدة ما يفعل كبار القادة أزاء التحصينات الحديثة — ثم أخذت جنوده تتدفق من الثغرة ، والتقت القوات وشبت الحرب التي انتهت بانتصار كبير للجنود المصرية وتم على أثرها انحلال القوات المقهورة وفرارها فتسلم طوسون المدينة وأرسل بمفاتيحها إلى محمد علي مبشراً ومهنئاً . . وىروى الجبرتى أن مفاتيح المدينة وبشرى الانتصارات بانغت الوالى « يوم الأضحى فحصل للبasha بذلك سرور عظيم وضرربوا مدافع وشنكاً بعد مدافع العيد » وبعد المدينة احتل طوسون جدّه ثم سار إلى مكة واستولى عليها بغير قتال ثم احتل الطائف فى ٢٩ يناير سنة ١٨١٣ فدانت له بذلك أهم مواقع الحجاز

ولم يكن سعود بن عبدالعزيز - أو سعود الكبير كما اصطاحوا على تسميته - خصماً عادياً وإنما كان مقاتلاً عنيداً ، فإنه لم يجاذف بجميع قواته فى ذلك القتال الذى دارت رحاه ، والذى انتهى باستيلاء طوسون على جدة ومكة والمدينة ، وإنما راح يرقب حركات خصمه بعناية وحرص ويختبر قوته وأسلوبه فى القتال ، ولعله كان يحرص

على مبدأ الحرب الصحراوية الذى يقول « إذا كانت الصحراء حليفتك فاجعل خصمك يتوغل فيها ثم وجه اليه ضربتك . . »
وجه سعود قوتين كبيرتين ، قاد أحدهما بنفسه وقاد الأخرى نجلاء فيصل ثم شرع فى الزحف إلى مكة والمدينة واعتزم قطع المواصلات بينهما وقابل طوسون هذه الحركة بإرسال قوة بقيادة مصطفى بك لمهاجمة تربة (٨٠ ميل من الطائف) التى كانت مركز قيادة فيصل ، فطوقها بجنوده وشدّد عليها الحصار ولكن البلدة انقلبت على بكرة أبيها وصدته بعنف وقتال لا هوادة فيها * فارتدت القوات المصرية على غير هدى تاركة المعدات والمدافع وفى الوقت نفسه كان سعود يهاجم الحناكية (٢٠ م من المدينة) ففتحها وشرع فى الزحف على المدينة .

وهنا رأى محمد على أن يشخص بنفسه إلى بلاد العرب فأعد حملة كبيرة كي يستطيع أن يقضى بها على مقاومات الوهابيين وينتهى من إخضاع بلاد العرب ، وقد ترك مكانه ولده إبراهيم ليشرف على الوجه القبلى ، وحسن بك ليشرف على الوجه البحرى ثم غادر مصر فى أغسطس فبلغ جدة فى شهر سبتمبر سنة ١٨١٣ .

* قادت هذه الحركة سيدة بدوية تدعى غالية ، كان زوجها من شيوخ تربة ، وكانت زعيمة فى قومها ومن أشد أنصار الوهابية وأقوى خدامها

ولا ريب أنه أراد من وجوده في أرض العمليات أن يعيد النظر في أوضاع قواته ويراجع خططها ، كما أن وجود القائد في المعركة يبعث الحماس والحمية في نفوس جنوده ويمكنه من إصدار القرارات الحاسمة ومواجهة المواقف السيئة بما تقتضيه ... وكان محمد علي يرتاب في نوع الدور الذي يقوم به الشريف غالب ، وراح يعزى أسباب الهزيمة إلى تراخيه في معاونة الحملة المصرية وعنايته بخدمة مصالحه الشخصية ، كما رأى من الخطأ بل من الخطر أن يطلع هذا الرجل على خطط المصريين وهو موضع الارتياب ، فقرر القبض عليه واعتقله وأرسله إلى القاهرة بعد أن صادر أملاكه وولى مكانه أحد أفراد عائلته الأقربين ، الشريف يحيى بن سرور

ووضع خطة تقضى بتحصين المراكز الهامة وتأمينها ضد هجمات الوهابيين كما فعل في مكة ، ثم الشروع في الأعمال التعرضية ومهاجمة العدو ، ورأى قبل أن يهاجم النسر أن يحطم أجنحته وكانت هذه الأجنحة هي قبائل البدو من أهل عسير فأرسل حملة قوامها ألف ومائتي جندي لاحتلال قنفذة ولكن العرب وضعوا أيديهم على عيون الماء وقاوموا بشدة فتراجعت القوة المصرية بسبب مشكلة المياه ، وارتدت ارتدادا مضطربا عاثرا كلفها خسارة بالغة ...

وقد لاقت حملة طوسون على تربة نفس النتيجة ولم ينجح

الحصار الذى ضرب حولها بسبب ما لاقته الجنود من متاعب الصحراء ومقاومة العدو الباسلة .

ولكن هذه المزامم وما ظهر على أثرها من نشاط الوهابيين لم تضعف من تصميم محمد على ولم تصرفه عن عزمه ، فأرسل فى طلب المدد فوافاه نائبه فى مصر بسبعة آلاف جندي من المتطوعين ، ويروى الجبرتى أن كتبها بك - قائمقام الوالى - شرع فى « استكتاب أشخاص من أخلاط العالم ما بين مغاربة وصعايدة وفلاحى القرى فكان كل من ضاق به الحال فى معاشه يذهب ويعرض نفسه فيكتبونه وإن كان وجيهاً جعله الكتيخدا أميراً على مائة أو مائتين ... »

ويمكن القول أن محمد على لم ينازل « سعود الكبير » منازلة جديدة ، أو أنه لم تتح لها الفرصة للقاء لأنه فى الوقت الذى كان فيه الطرفان يستعدان للبعارك الفاصلة توفى سعود فى إبريل سنة ١٨١٤ فكان ذلك من المصادفات الطيبة التى صادفها محمد والى كثير ما كان يلتقى بها فى طريقه

على أن وفاة سعود الكبير لم تقضى على الحركة ولم تنه القتال ومع أن ولده عبد الله لم يكن فى مثل بأس أبيه وعلو همته ، إلا أن القتال ظل مستعراً ونال فيه الوهابيون عدة انتصارات صحراوية انتهت بتطويق الطائف وأصبح طوسون على رأس قواته محاصراً ٣٤٠٠

فعمد محمد علي إلى الحيلة لينقذ قواته المحصورة في الطائف بأن أرسل إلى طوسون رسالة قدّر لها الوقوع في أيدي العرب ، وقد جاء فيها « إني قادم إليك فاحذر والحق بنا فوق الجبل » فلما عرف الوهايون ذلك ظنوا بهذه الرسالة الظنون واعتقدوا أن جيشا كبيرا قد شرع في الزحف لتخليص المحاصرين فلا يمتد الوقت حتى يصبحوا — أي العرب — بين قوسى الخطر ، أسرعوا في رفع الحصار من الطائف وعجلوا بالانسحاب

وإلى هذه الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها لم يكن مركز الحملة المصرية قد تحسن ، فقد بلغ الإجهاد بالجنود مبلغا سيئا فى هذه الحرب الصحراوية المتعبة الحافلة بالمتاعب والمشاق التى يهددهم فيها تقلب الأعراب وثورانهم ، غير أنه مما يذكر لهذه الحملة بالخير أنها فى تلك الآونة كانت قد أمنت طريق الحج وسهلت أداء الفريضة للمسلمين من جميع الأقطار

ثم حدثت موقعة كبرى بسبب ما حشد فيها من قوات وبسبب ما انتهت إليه من نتائج وهى موقعة « بسل » وفيها التقى محمد علي باشا على رأس أربعة آلاف مقاتل بفيصل بن سعود على رأس ٢٠ ألف ، وذلك فى شهر يناير سنة ١٨١٥ وقد استمرت المعركة نهارا كاملا وانتهت بهزيمة ساحقة للوهايين خسروا فيها ستماية من رجالهم

وزحفت قوات طوسون إلى مرا كز الوهابيين فأدالتها واحدا
بعد آخر واستولت على رينة وبيشة وتربة وقنفدة والرس وكان من
نتائج هذه الانتصارات أن داخل اليأس ابن سعود فأرسل وفدا
لطالب شروط الصلح وحدثت لذلك هدنة مؤقتة حتى يعرض الأمر
على والى مصر

وكان محمد على قد ترك بلاد العرب فجأة وأسرع إلى مصر بسبب
ما بلغه عن اختلال الأمن وما أشيع من مؤمرات تدبر في غيبتها (١)
كما أن حالة الحرب بين فرنسا وأعدائها كانت قد دخلت مرحلة
جديدة حين هاد نابليون من منفاه وأعاد أوروبا إلى الأتون ...
وخشى أن تستهدف مصر بسبب ذلك إلى الأخطار

وقد وفد مندوب الصلح إلى مصر في سبتمبر ١٨١٥ وكان محمد
على قد صمم على أن ينتهي من الوهابيين فانتهاز الفرصة وتيسر في
طلباته التي كان في مقدمتها أن يسافر ابن سعود إلى الأستانة ليكون
رهن أوامر السلطان فرفضت هذه الشروط (٢) وكان هذا نذيرا

(١) مؤامرة لطيف باشا ، وهو من ممالك محمد على ، أنعم عليه السلطان
بالباشوية حين كان موفداً لحل بشرى الاستيلاء على المدينة ، وقد طمع في الولاية
ومالاً الحكومة التركية على ذلك ، وأخفقت محاولته ، وقتل أثناء فراره
(٢) جاء في كتاب إبراهيم باشا — لبيد كركيتس — أنه جاء في رسالة ابن
سعود « لم يبق لدينا شيء من النفائس التي وجدناها والدنا سعود عند قبر =

بمتابعة الحرب والعودة الى القتال

وعاد طوسون في شهر نوفمبر سنة ١٨١٥ إلى مصر فاستقبل استقبالاً حماسياً سجله الجبرتي بما شاهده من «زينة الحوانيت والشوارع ودخول الموكب الحافل من باب النصر وطلوعه القلعة ..» وقد ولى طوسون في مصر قيسادة بعض الفرق حتى عاجلته المنية ليلة ٢٩ سبتمبر سنة ١٨١٦

ولم تكن الهدنة التي أقرها طوسون وابن سعود سوى سلم مسلح بينما كان الطرفان يتأهبان بشدة ويستعدان للعمليات الفاصلة ولذلك أخذ محمد علي يفكر في قائد قدير يستطيع أن يقوم بضربة عاجلة فيقضى على الوهابيين ويخضع بلاد العرب جميعها وقد ناقش محمد علي أولى الأمر فيمن يقع عليه الاختيار ، ويروى أنه جمع القواد والوزراء والرؤساء وشرح لهم خطته الحربية ثم أشار إلى تفاحة أمامهم وسط طنفسة كبيرة مفروشة في أرض الحجرة وقال لهم « من استطاع منكم

== النبي وحملها معه ، بل بيعت كلها وبددت أما حكم البلاد فاسمحوا لنا أن نقول . أن في استطاعتكم أن ترسلوا رسولا من قبلكم يجمع لكم الأعشار ..) فأغضب هذا الرد محمد علي وأجاب الرسل بقوله (قولوا لمولاكم أني عارف بأنه قد حصن المدن وحشد الجند وتأهب للقتال ، وليس هذا كله بخاف على فأبلغوه نصيحتي أن يأخذ جدره ، ويحتاط لنفسه ، لاني مرسل إلى الحجاز ولدي ابراهيم لينزل ببلادكم الحراب والدمار ويأتي إلى بأهلها أمواتا أو أحياء ...) وهكذا أبدت الرغبة عن المريخ وعرف كل من صاحبه ما يبطن له ...

أن يصل الى هذه التفاحة فيتناولها بيده ثم يأتيها من غير أن تطأ قدمه الطنفسة وليته قيادة الحملة على نجد ... ، وقد عجز الجميع عن الوصول إلى التفاحة حتى أقبل ابراهيم وأخذ يطوى طرف الطنفسة إلى الداخل حتى أصبحت التفاحة في متناول يده فأخذها وحملها إلى والده فولاه قيادة الجيش في الحال ... !

وقد جاء ذكر ابراهيم أكثر من مرة في الصفحات الفائتة ولسكنها لم تسكشف عن روحه ولم تعبر عن شخصيته الفذة ، فهذا الرجل الذي كان رهينة في الأستانة والذي ولي حكم الصعيد في غيبة والده والذي اختير في السابعة والعشرين من عمره لقيادة حملة الحجاز ، قد وضع قدمه في ساحة التاريخ ودفع اسمه بين عظماء القادة وأفذاذ المحاربين وقد جاء تعيينه في هذه الحملة بشيرا له بالمجد فانبعثت شهرته وبزغ نجمه في سماء العسكرية ورواياته الفرصة التي دفعت به إلى الميادين العالمية تحت سمع التاريخ وبصره

قضى ابراهيم قرابة ستة أشهر في إعداد الحملة ، وقد امتازت بوفرة النظام وجودة التسليح وحسن التدريب وقد ألحق بهيئة أركان الحرب المسيو Jassière ، من ضباط نابليون ، كما انضم إلى القسم الطبي عدد من الإيطاليين الاختصاصيين

تحركت قوات ابراهيم من القاهرة في ٥ سبتمبر سنة ١٨١٦ إلى

أسيوط حيث انضم اليها ألفان من الأهالي ثم بلغت قنا وتركتها
إلى القصير حيث بدأت عمليات العبور، وبلغ الأسطول المصري ينبع
في ٢٩ سبتمبر فنزلت القوات واتجه سيرها شطر المدينة المنورة (١)
وقد اختار إبراهيم بلدة « الصويدرة » لتسكون معسكراتها لقواته،
وفيها بدأ يعد خطط الغزو

وكان أول ما فكر فيه هو القضاء على العرب المناوئين
لل قوات المصرية فقد كانوا يترصدون للقوافل ويقذفون الطريق بين
الصويدرة والساحل ، فأرسل اليهم قوة فتسكت بهم ... وكان من أثر
هذا العمل لحاسم أن انحاز كثير من العرب إلى جانبه رآ أثر وامساعدته
وتقدمت القوات المصرية نحو الرس - وكان الوهابيون قد
استولوا عليها عقب اخفاق مشروع الصلح وشرعوا في تحصينها
فحاصرها إبراهيم طيلة ثلاثة أشهر دون أن تلبس قناة أهلها أو يضعف من

(١) عند ما بلغ إبراهيم باشا المدينة المنورة في ٩ أكتوبر بادر بزيارة
قبر المصطفى ، وهناك دعا له شيخ الحرم بالتوفيق (يا أيها النبي الكريم ، ها هو
إبراهيم بن محمد علي قد خر ساجدا أمامك وقد قدم إلى ديارنا ليطلبك أعداء دينك
فأيده اللهم بنصرك وهبه القدرة على تأييد شرعك ونصرة كتابك المقدس وتمزيق
شمل العصاة الوهابيين ..) فعقب إبراهيم على ذلك داعيا الله أن ينصره (فاجعل
النصر حليقي ووفقني إلى معرفة مقاصد العصاة فان أعدائي هم أعدائك وأعني على
تمزيق شملهم ...)

عزمهم ، وقد تكلف هذا الحصار ، وما تخلله من هجمات قوية ما يزيد على ثلاثة آلاف من الضحايا مع ما استنفذ من ذخيرة ومؤن ومجهورات وأخيرا تراخت قوة الحصار بسبب الملل وضالة القوة ومتاعب الصحراء وانتشار الأوبئة وكثرة الحسائر ، فرفع الحصار عن البلدة وتراجعت عنها قوات ابراهيم بعد اتفاق غريب مع عبد الله بن سعود وهو أن يسلم الرس لابراهيم اذا تمكن من الاستيلاء على عنيزة !

وكانت عنيزة من أهم مواقع نجد ، وقد سار اليها ابراهيم بعد استيلائه على الحراء فحاصرها ستة أيام حتى سلمت وبذلك كان له أن يدخل الرس طبقا لما جاء في الاتفاقية السابقة ، واستأنف ابراهيم الزحف ، وأعدت انتصارات عنيزة والرس الأمل في نجاح الحملة وأنعشت روح الجنود ، فتم احتلال بريدة بسرعة وسهولة ومنها بدأ الزحف الى الشقراء

ولم يحدث التحام قبل أن تصل امدادات وافرة من مصر ، وبعدها سارت الحملة الى الشقراء فحاصرتها ورجمتها بمدفعية شديدة حتى سلمت في الثاني والعشرين من يناير سنة ١٨١٨ وعد ذلك من الانتصارات الحربية الباهرة للحملة المصرية

وبقيت الدرعية - وهي عاصمة الوهابيين ومركزهم المنيع

على بعد ٨٠ ميل من الشقراء - وكانت قوية بأسوارها وبما وضع فيها من قوات وأسلحة ومؤن ، فاقترضى الأمر أن تستعد القوات المصرية استعدادا عظيما وأن توضع لفتح الدرعية خطط كبيرة الإحكام

وكان ابواهم عقب استيلائه على الشقراء قد ترك بها حامية مناسبة ثم شرع في الزحف على الدرعية ، وفي الطريق قاومته «ضرمه» وامتنعت عليه وكانت غنية بما فيها من جنود ومؤن وجياد ، قوية بدفاع أهلها وصلابتهم ، فشن عليها حربا شعواء وأدار حولها قتالا عنيفا سلبت البلدة على أثره فقتل أهلها جميعا !

ثم هطلت الأمطار فأوقفت التحركات وقضى ابراهيم شهرين في ضرمه ثم تركها يوم ٢٢ مارس في طريقه الى الساحة الأخيرة وهكذا طوى الجزيرة حتى جاء الدرعية بعد حرب شاقة وقاتل مرير وطريق مخوف بالمصاعب والأخطار وأحوال جوية متقلبة وأصبح على أبواب المرحلة الأخيرة في تلك الحرب ، فأخذ يعد لهذه المرحلة الفاصلة عدتها ، ووضع خطة محكمة للهجوم على الدرعية تشتمل على البدء بضرب المدفعية بينما تدور الفرسان حول البلدة لشغل أهلها ثم تقوم المشاة بالاختحام حين تضطرب حالة الدفاع تضعف قوته ولكن بقيت الحالة على أشدها شهرين كاملين دور أن تتمكن الحملة

المصرية من دخول البلدة التي دافعت دفاعاً مجيداً عبّر عن روح أهلها وصلابتهم ، ولا غرو فقد كانت الدرعية قاعدة الحركة وآخر معاقلها .

وحين كان الحصار يطول في أمثال تلك المواقع لم يكن الملل يصيب المدافعين وحدهم ولكنه كان يبرى المهاجمين أيضاً حيث تقسو عليهم الطبيعة وتطول بهم المحاولة ، وزاد في سوء موقف الجنود دخول الدرعية حادث جاء قضاء وقدرًا فإن ريحاً شديدة كانت تهب في تلك الأنحاء فأطارت نارا كان يوقدها أحد الجنود فبلغت مكان الذخيرة فنسفت ما يقدر بنصف المرتب ، وكاد الموقف أن ينقلب إلى خسارة مريرة وإخفاق أخير لولا ما بذله القائد من جهود واحتياطات لتوفير الذخيرة ، كما أنه على أثر هذا الحادث قام السعوديون بهجوم مضاد - منتهزين الفرصة المواتية - ولكنه أخفق بسبب ثبات إبراهيم وقدرته على مواجهة الشدائد ، والتخلص من المواقف السيئة . فقد تفادى الهزيمة ورد الوهابيين على أعقابهم ، ثم حمل عليهم حملة شعواء حين وصلت الإمدادات والذخائر ، وهاجم البلدة هجوما عنيفا حتى أفقدها القدرة على المقاومة ، وانتزع منها الثبات والصلابة ، وأطاح بآخر آمال السعوديين فأرسل أميرهم مندوبيه لتلقي شروط الصلح في التاسع من نوفمبر سنة ١٨١٨

وانتهى القتال وسلبت الدرعية - عاصمة الوهابين - وسافر ابن سعود على أثر تلك الهزيمة الى الآستانة ، وقضى على حركة الوهابيين القضاء الاخير وخضعت بلاد العرب لوالى مصر فكان ذلك من الأحداث الكبرى فى تاريخ الجيش المصرى ، وقد احتفلت البلاد بهذا الانتصار العظيم يوم ١٨ أكتوبر فى القاهرة وأطلقت المدافع تحية وابتهاجا

وقد وصف الجبرقى الحفلات الحربية فروى أنه « وردت البشائر من شرق الحجاز بمراسلة من عثمان أغا الوردانى أمير ينبع بأن ابراهيم باشا استولى على الدرعية والوهابية ، فانسر الباشا لذلك الخبر سرورا عظيما وانجلى عنه القلق وأنعم على المبشر وعند ذلك ضربوا مدافع كثيرة من القلعة والجيزة وبولاق والازبكية ، وانتشر المبشرون على بيوت الأعيان لأخذ البقاشيش ووصل المرسوم بالمكاتبات من السويس وينبع فأكثروا من ضرب المدافع من كل جهة بحيث ضرب بالقلعة خاصة ألف مدفع وأمر بعمل مهرجان وزينة داخل المدينة وخارجها وبولاق ومصر القديمة والجيزة ، وشنك على بحر النيل تجاه الترسانة ببولاق . . ثم احتفل بهذه البشائر سبعة أيام أخرى ثم أعدت حفلات نيابية فى بولاق » تضرب فيها المدافع وتوقد المشاعل وتعمل أصناف الحراقات والسوارىخ والنفوط

وتتقابل القلاع المصنوعة على وجه الماء ، ويرمون منها المدافع على هيئة المتحاربين . . . »

وهنا نستطيع أن نعرف القائد الفاتح على أضواء هذه الحملة ونقف على بعض مزاياه كجندى كبير ، وما امتاز به من صفات شخصية ساعدت مع الصفات العسكرية على جعله جديراً بهذه الضبغة التي اكتسبها بين عظماء الرجال والشهرة التي واثته كرجل سيف ورجل حكم .

أما من الناحية العسكرية فقد كان استراتيجياً بعيد النظر ، فاختار السير في الوادى الطويل الممتد من مكة الى نجد حتى يسلم من المرور بوادى الدواسر - وكان يقطنه المتطرفون من العرب - كما أنه رأى فى ذلك ضماناً لحاجته من الماء ، وهذا يكشف عن الناحية الإدارية وأهميتها فى نظره

وفى الوقت نفسه كان سياسياً حكيماً يعرف أن الكسب بغير حرب أفضل من الانتصار فى الحرب ولذلك أخذ يستميل اليه البدو ويجمع حوله الأنصار بحسن سياسته ، وكان يحسن معاملة الأهالى فحرص جنوده على النظام وعدم الاعتداء ، وقد ذكر الرحالة الإنجليزى بلجريف ، إن ابراهيم حرم على جنوده وضباطه إيذاء الأهالى العزل ونفذ ذلك التحريم وعاقب مخالفيه بأشد الجزاء

وعنايته باضعاف خصمه من ناحية استنفاد الموارد تفصح عن
حصافته وسعة حيلته ، فقد كان يدفع بالبدو الذين لا فائدة منهم أمامه
إلى أوساط نجد ليستنفدوا موارد الوهابيين

أما شدته ، في موضع الشدة ، فقد كانت مضرب المثل ؛ وقد عرف
بالقسوة الشديدة مع أصحاب الأفكار التي تتعارض مع سيادة القانون
والنظام ؛ ومن الوقائع المشهورة أنه استدعى رجال الدين والفقهاء
لمراجعة أسباب الخلاف بين العقائد ، فلما طال النقاش دون أن
ينتهوا إلى رأى ، أمر بهم فقتلوا ، وأنقذ الاسلام من هذه الشوائب
الضارة وصان وحدة المسلمين وكان شعاره في ذلك الآية الكريمة
« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »

وكان حاكما كيسا أو مثالا للنزاهة والصبر كما وصفه أحد
المؤرخين فكانت سياسة تنظيم البلاد المفتوحة والمسالمة مع الشعب
الخاضع والاستعانة على حكم البلاد بأمرائها الأقدمين ، وفي الوقت
نفسه كان يتبع القسوة والصرامة حين تؤدي إلى الأغراض ،
مسترشدا في جميع أعماله بقواعد النظام والرقى والعدالة

هذا هو ابراهيم البطل المصرى ، ونقول المصرى لأنه قال
من قبل « لقد جئت مصر طفلا فغيرت شمس مصر دى وبدلته دما
مصريا خالصا . ١ » وهذه غزوته لبلاد العرب التي قمع بها حركة

الوهابيين وأخضع بلاد العرب وهى بداءة غزوات وحروب كبرى
جعلته من أعظم رجال الحرب فى التاريخ

نعود بعد ذلك إلى استكمال قصة الحملة المصرية بعد أن دانت لها
بلاد العرب فقد أرسل عبد الله بن سعود إلى الاستانة حيث قتل
بأمر السلطان

أما عن الدرعية فقد أرسل محمد على أمرا بتخريبها وتدمير حصونها
ثم أرسل أخوة عبد الله بن سعود إلى القاهرة ، ثم عاد إبراهيم إلى
مصر فوصلها يوم ٩ ديسمبر سنة ١٨١٩ وهناك استقبل استقبال
كبار الفاتحين واستمر ب الزينة والوقود والسر بالليل وعمل الحراقات
وضرب المدافع فى كل وقت من القلعة ومفاتيح وملاعب فى مجامع
الناس سبعة أيام بلياليها فى مصر الجديدة والقديمة وبو لاق وجميع
الأخطاط

وأهم ما يلفت النظر فى هذه الاحتفالات أن محمد على لم يظهر فيها
حتى يترك جلالها وعظمتها لولده إبراهيم ، ولهذا بقى فى أثناءها بعيداً
عن الأنظار تدفعه إلى ذلك عاطفة رقيقة ، فبينما كان إبراهيم يدخل
القاهرة من باب النصر ويشق طريقه إلى القلعة فى موكبه الرهيب ،
كان محمد على واقفاً فى مسجد الغورى فى موضع لا يراه منه أحد

يشاهد من أحد نوافذه موكب ابنه أثناء مسيره في يوم من أيام
المجد المصرى

أما بعد عودة ابراهيم الى مصر فقد بقيت قوة من الجنود المصرية
في بلاد العرب تحت قيادة الميرميران - أى الفريق - أحمد شكرى
باشا ابن أخت محمد على وقد عين حاكما على جدة وولايات حاميات
نسبية في مكة وينبع والمدينة وقنفذة وغيرها من المراكز الهامة ..

وبعد مضى وقت طويل انشغلت مصر خلال بأحداث هامة
أخذ نفوذ شكرى باشا يضعف في بلاد العرب وعادت حركة
الوهابيين تبعث من جديد وأخذت القبائل العربية تناهض الحكم
المصرى وتشن الغارات على طرق القوافل ومسالك الحجاز ثم راحت
تتوغل في ضواحي البلدان وتهدد صفوف الأمن في مكة والمدينة
وتهدد طرق الحج .

فلما بلغ الأمر مرحلة لا يحسن السكوت عندها أرسل محمد
على حملة من جنوده النظامية لاختاد نشاط المفسدين والقضاء على
الفوضى وإعادة الأمن وإقرار السكينة ، وكان قوام الحملة الألى
الثانى مشاه تحت قيادة الأمير الألى محمد بك الدويطار وقوة الفرسان
التركية وعدة مدافع ، وضم اليها عددا من القواد الفرنسيين واثنتين
من المهندسين المصريين - وقد أنيطا برسم الخرائط -

ووثرك الركب من عدى فى شهر اكتوبر سنة ١٨٢٣ فوصل إلى قنا بطريق النيل ثم بارحها إلى القصير ومنها عبر إلى جندة - التى أصبحت قاعدة تموين القوات المصرية بالحجاز - ورابطت الحامية فى مكة خمسة عشر يوماً حتى جهزت الخطط وكانت ترمى إلى التقدم فى اتجاه سلسلة جبال الطائف .

وولى قياده الحملة شكرى باشا وكانت قواته تتكون من آلاى مشاة وستة أورط وبلوكين وقوة من الفرسان ومدفعية مناسبة ، وقد غادرت الحملة مكة من طريق شاقة ومسالك جبلية . وعرة حتى بلغت الطائف وبعد إقامة قصيرة عاد الركب إلى المسير فى اتجاه الشرق ماراً بكلاح وتربة وعقيق وشينه ومنها انحرف جنوباً ماراً بجنيفة ووادى ونان وسليلا حتى التقت بطلائع العدو - بعد مسيرة ٢٥ يوماً - عند مرتفعات جبال شيط وكان العدو الذى يبلغ عدده ٢٥ ألف رجل يربط فى مراكز منيعة ويستعد لملاقاة الحملة المصرية ، ثم دارت رحى قتال عنيف وفوجئ العرب بقوات نظامية مدربة ذات أسلحة ممتازة لاعهد لهم بها، وانتقلت المعركة إلى سفوح الجبال ولم تأخذ وقتاً طويلاً بسبب تفوق الجنود المصرية فى قوة النيران وحسن النظام ووفرة الاستعداد فتراجعت قوات العرب عن مراكزها وتركت بالميدان أربعائة من أفرادها بين قتيل وجريح وأسير بينما

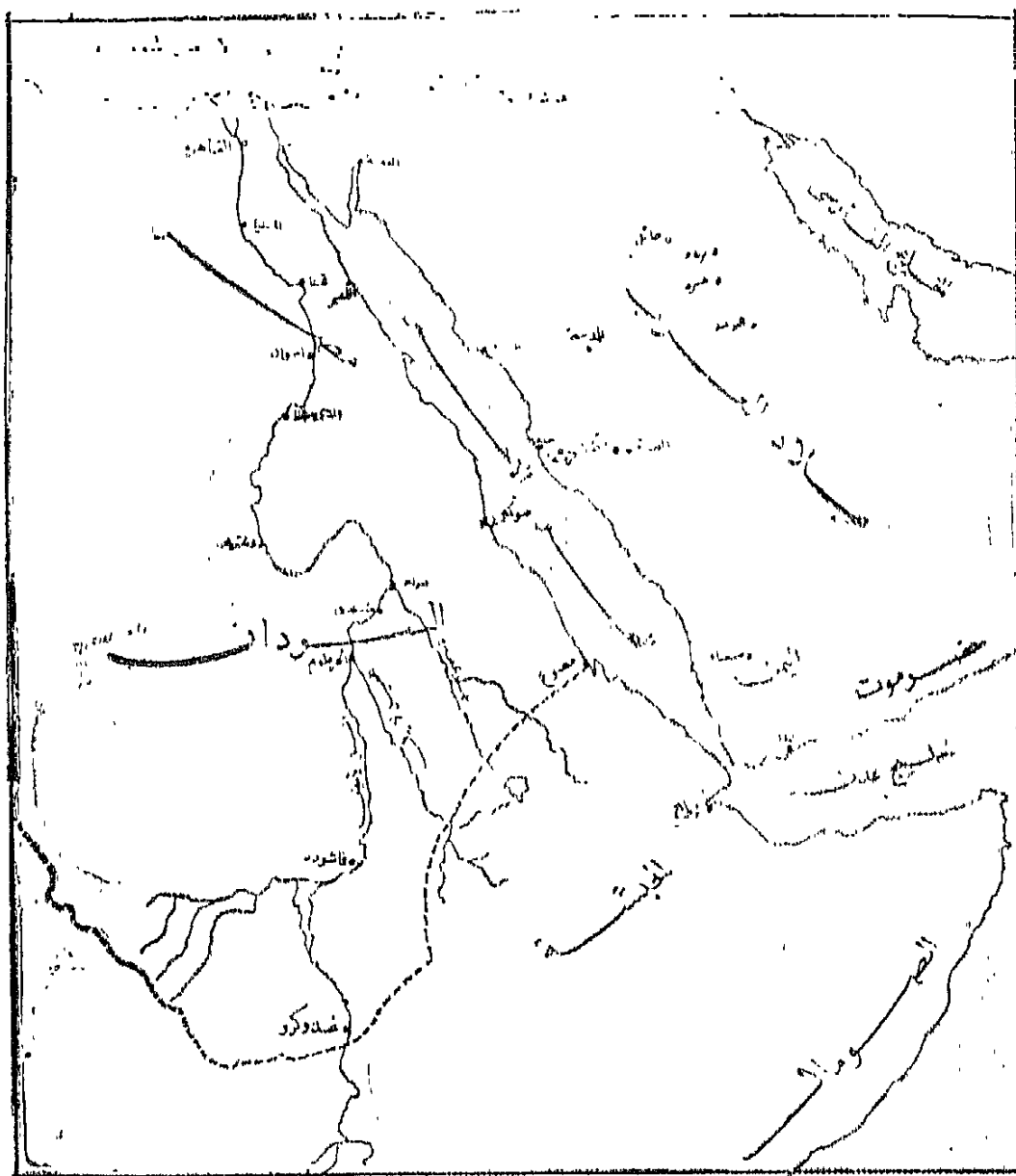
خسر المصريون أربعين قتيلا وجرح مائة وثمانية وعشرون وكان من نتائج هذه المعركة أن انتهى عهد القلاقل واختتمت حركة الوهابيين واستتب الأمن في بلاد العرب

وقد أصدر محمد علي - على أثر ذلك - مكاتبة إلى ناظر الجهادية - على نحو ما يجيء في البلاغات الحربية الحديثة - جاء فيها عن هذه المعركة « وجاءوا - أي العرب - خفية من طرف الجبل ومعهم خمسة وعشرون ألفا وأرادوا أن يبيتوا العساكر المنصورة ويباغثوهم ولكن المخافر الأمامية كانت منتبهة في كل وقت فلما رأوا أولئك الأشقياء جائين أخبروا بمجيئهم ففي الحال ضربت النقارات وأخذت العساكر تتوغل الجبال وتصطف صفوفها حسب الأصول المرعية فألفوا سداً منيعاً كأنه من حديد ، فلما وصل الأشقياء إلى سرى الرصاص بدى باطلاق النيران عملاً بقاعدتنا ، وحمى وطيس الحرب ست ساعات ونصف ساعة بالتمام وأخيراً اشتبك الطرفان فيما بينهم بالطعن بأسننه البنادق فلم يستطع أولئك الأشقياء الثبات والمقاومة فاختلفت أحوالهم فبادروا إلى الفرار ، وقد كانت تلك المحاربة ليلية لا يستطيع اللسان أن يصفها فإن ثبات أولئك العساكر المجاهدين أمام ذلك الجمع السكثيف من أشقياء العرب وانتصارهم عليهم ثم رجوعهم إلى أماكنتهم بكل جسارة وبسالة من غير أن

يخاوا بالنظام بالرغم من كون اصول التعليم العسكرى أينما تكون وقت التعليم فقط لا أثناء الحرب ليجعلنا نعتقد من غير شك ولا شبهة أنهم سيبلون البلاء الحسن عند وقوع حرب أخرى ... »

وفى هذا البلاغ الحربى ما يشعر بمقدرة قوات محمد على النظامية وكفايتها فى الحرب وما كانت عليه من تدريب ودراية ، فقد كانت تتبع أحدث أساليب الحرب وتجرى فى نظامها وتحركاتها على الأصول المرعية ، وتحارب عدوا شديدا البأس فى أرضه - بين الصخور والمرتفعات التى يجيد فيها القتال فتهزمه وتقصيه ، وهى تتبع قواعد الحرب فلا تفتح النيران على العدو إلا حين يصل إلى خط (التويه) حتى يكون الضرب محكما ومفاجئا وبدون إسراف فى الذخيرة ، وهى تضع النقاط الأمامية لملاحظة تحركات العدو واستكشاف نواياه واتسرع فى إبلاغ القوات الرئيسية ما يتكشف من أمره ، وهى تستخدم الفرسان فى الاستكشاف البعيد المدى والحصول على المعلومات وسرعة إبلاغها وغير ذلك من قواعد الحرب الحديثة

وفى نهاية البلاغ نجد العاهل العظيم ، وهو بالقاهرة يطمئن إلى نتيجة التجربة وما بلغت حنوده من كفاية حربية ، فيجعله ذلك واثقا من أنهم «سيبلون البلاء الحسن» حين يبعث بهم فى غمار حروب أخرى...! فقد كان يحلم بفتوح شائعة وأمباطورية منصرية عظمى



بلاد العرب والسودان

حملات فتح السودان

لم يكبد محمد علي باشا ينتهى من حروبه فى بلاد العرب ويبسط سلطانه على الجزيرة بعد إخماد حركة الوهابين حتى جاشت نفسه بالآمال الدخيلة فقامت كان يحلم بتكوين امبراطورية عظيمة موطدة الدعائم موفورة النظم تحاكي الممالك العظمى فى عصره وتقف معها على قدم المساواة ، ولذلك صحت عزيمته على فتح السودان وضمه إلى جامعة الوطن المصرى

وكان - منذ فازت جنوده فى بلاد العرب بالانتصارات العظيمة وبدأت آلات الحربية الجديدة والنظم المستحدثة التى أشاعها الكونانيين سيف فى القوات المصرية تبشر بنهضة عسكرية حافلة - يفكر فى ميادين جديدة لتحقيق ما يهدف له من أغراض حربية ، وكان ذلك أكثر من دافع يجتذبه نحو الجنوب

وقد ذكرت عدة أسباب دفعت محمد علي باشا إلى فتح السودان منها توسيع المجال الحيوى لمصر ، وتجنيد السودانيين حتى يضم إلى جيشه عناصر قوية معروفة بالصبر والشجاعة والولاء ، وتخليص

قواته من العناصر غير النظامية وتدمير البقية الباقية من الممالك الذين استوطنوا دنقلة بعد فرارهم من مصر ، وقيل أنه كان معنيا بكشف منابع النيل (١) وتأمينها ، فقد كان يدرك أن الاستقلال الصحيح لا يتحقق لمصر قبل أن تمتلك مجرى النيل من المنبع إلى المصب (٢) كما كان مهتما بما سمعه عن وجود معدن الذهب في أرض السودان فأراد كشف مناجمه ولذلك ألحق بالحملة عدداً من المختصين

ويرى بعض المؤرخون أن فتح السودان كان مشروعا قوميا بحثا أراد به محمد علي تأليف وحدة مصر السياسية ، وإعادة البلاد إلى حدودها الطبيعية والمحافظة على كيانها القومي

وقد ذكر الجبرتي عن غايات محمد علي من فتح السودان ما يأتي :

(١) قال مسيو دهر أن في كتابه (السودان المصري في عهد محمد علي) أن محمد علي بإيفاده الرحلات والبعثات لاستكشاف منابع النيل قد حقق الأمل الذي كان يطمح اليه علم الجغرافيا

(٢) ذكر ابراهيم باشا فوزي في كتابه (السودان بين يدي غردون وكوشنر) أن محمد علي باشا سمع أن دولة أجنبية تسعى لمعارضته باحتلال منابع النيل فاهتم لهذا الغرض أكبر الاهتمام واستشار كثير من المهندسين الاوروبيين الذين جاءوا من بلادهم الى مصر فأقروا بالاجماع أن وقوع منابع النيل تحت نفوذ دولة أجنبية أمر لا تحمد عقباه حيث تصير حياة مصر في يدها ، فصمم على انقاذ الحملة إلى السودان

« حضر الباشا من الصعيد بعد أن وصل في سرحته إلى الشلال وكان الناس يقولوا على ذهابه إلى قبلي أقاويل ، منها أنه يريد التجريد على بواقي الممالك المتقطعين بدنقلة فإنهم استفحل أمرهم واستكثروا من شراء العبيد صنعوا البارود والمدافع وغير ذلك ، ومنها أنه يريد التجريد أيضا وأخذ بلاد دارفور والنوبة ويمهد طريق الوصول إليها ومنها أنهم قائلون إنه ظهر بتلك البلاد معدن الذهب والفضة والرماس والزمرد . . »

وقال في موضع آخر « قوى عزم الباشا على الإغارة على نواحي السودان ومن قائل إلى دارفور ، وصارى العسكر ابنه اسماعيل باشا ، وجه الكثير من اللوازم إلى الجهة القبلية ، وعمل البقسماط والذخيرة ببلاد قبلي والشرقية . . »

ويتضح من ذلك أن محمد على كان قد صمم على فتح السودان لأكثر من سبب واحد وأنه سافر بنفسه إلى الحدود الجنوبية كي يجرى استطلاعاً شخصياً فيما وراء حدوده وهناك وضع خطط الزحف بما تمليه طبيعة تلك الجهات ، فلما عاد إلى مصر شرع في التمهيد للحملة وإعداد مستلزماتها ، وبعث إلى الممالك يسترضيهم ويدعوهم للحضور إلى مصر فرفضوا دعوته وأخذوا يهددون الحدود الجنوبية بأغاراتهم عليها وبذلك وجد سبباً لمقاتلتهم

وقد ولى قيادة الحملة إسماعيل باشا - ثالث أنجال محمد على - وكانت تضم أربعة آلاف مقاتل منهم ١٢٠٠ من الفرسان العثمانيين و ٤٠٠ من فرسان العرب والمغاربة ، و ٦٠٠ من المشاة ، و ٣٠٠ من رجال المدفعية ، و ٨٠٠ من المشاة العرب والمغاربة ، و ٧٠٠ من عرب العبادية ، وقد أعد للحملة السفن اللازمة لنقلها بطريق النيل والإبل الضرورية لنقل المؤن والمعدات

وتحركت الحملة في ١٩ يولية سنة ١٨٢٠ بطريق النيل بينما سار الفرسان بمحاذاة الشاطئ ، فلما بلغت الدر سارع المماليك إلى الفرار ودخلها إسماعيل بغير مقاومة ثم اتبع ذلك بالزحف على دنقلة حتى أخضعها ، في خلال ذلك كثر عدد الذين خضعوا عن المماليك بينما تشرد الباقون في أنحاء السودان حتى لا قوا حتفهم

وبعد احتلال دنقلة دخل الجيش بلاد الشائقية - التي تقطنها قبائل شديدة البأس ، قوية التحفز لحماية البلاد والدفاع عنها - فواجه إسماعيل ثلاثين ألفاً بين فرسان ومشاة في معركة عنيفة دارت يوم ٤ نوفمبر سنة ١٨٢٠ تغلبت فيها النيران على الشجاعة وانهمزت قوات الشائقية بعد أن قعدت ٨٠٠ مقاتل مقابل ٣٠ من المصريين ثم احتل إسماعيل عاصمتهم (كورتس) وأحرقها وبما يذكر أن إسماعيل دعا أهل الشائقية - الذين أعجب ببسالتهم - للانضمام

إلى الجيش المصرى ، فقبل بعضهم ؛ وحاربوا بشجاعه ، وظلوا موالين
مخلصين وأبلوا البلاء الحسن

وأستأنف اسماعيل الزحف فى ٢١ فبراير سنة ١٨٢١ ففتح بربر
فى ١٠ مارس وشندى يوم ٨ مايو والخلفاية ثم أم درمان وأخيراً بلغ
الخرطوم ، ثم احتل دنار وواد مدنى حتى دخل العاصمة فى يونيه
سنة ١٨٢١

وكانت ثمة حملة أخرى أرسلها محمد على تحت قيادة صهره محمد بك
الدفتدار لفتح كردفان ، وكان الطريق إليها وعراً فى صحراء يباب لا
ماء فيها ولا غذاء وقد حدث اشتباك كبير مع سلطان دارفور فى
معركة باره ، نال فيها القائد المصرى نصراً حاسماً مكنه من احتلال
الأيبيّض . . وكانت معركة باره نصراً للمدفعيه المصرية التى انتزعت
النصر بعد مشقة وعناء ، ثم حطمت بعد ذلك محاولات الهجوم
المضاد

غير أن الجيش المصرى كان يواجه عدواً آخر أشد خطراً وهو
أمراض المناطق الحارة ، التى فتكت بالجنود وأهلكت منهم عدداً
كبيراً ، فسامت أحوال الحملة فى سنار وكردفان وأوشكت على الفناء (١)

(١) وصل عدد الوفيات ١٥٠٠ فى شهر اكتوبر سنة ١٨٢١

ولذلك سارع محمد علي - عند ما بلغته الأنباء المحزنة عن الحملة المهددة بالهلاك - فأرسل نجله إبراهيم باشا على رأس قوة كبيرة ومعه المؤن واللابس وعدد كبير من الأطباء وكميات من الأدوية ، وبذلك جدد الأمل في نفوس هؤلاء المحاربين البواسل وأنعش روحهم المعنوية ، وكان قدوم إبراهيم بشيرا لهم بالنصر والسراء

وشرع إبراهيم في إعداد خططه لفتح ما بقى من ولايات السودان واستقر رأيه على أن يتقدم بنصف الجيش فيخترق سنار متجها إلى أعلى النيل بينما يقود إسماعيل نصف الجيش إلى إقليم فازو على النيل الأبيض

فلما بلغ إبراهيم منتصف الطريق أصابه المرض فعاد إلى مصر واستمر إسماعيل في زحفه حتى بلغ أهدافه في يناير سنة ١٨٢٢ وأخذ في توطيد السيادة المصرية على ولايات السودان ، بينما كانت بعثة الذهب تقوم بأبحاثها دون توفيق ، ثم وصلت الأخبار بما كان من تمرد ، أهل سنار على الجيش فعاد إسماعيل اليها في فبراير ١٨٢٢ وكانت ثورة أهالي حلفا وشندى بسبب ما كان من سوء معاملة الجنود الأرثوذكس للأهالي ، فشقوا عصا الطاعة وتمردوا على السلطة وهاجموا قوافل الأرقاء . . فرحل إسماعيل فورا واستدعى ملك شندى ، وكان يدعى نمر ، فحاسبه وأساء معاملته وقضى عليه بغرامة

من الرقيق ، نخرج نمر متظاهرا بالطاعة مضمرا الشر مصمما على
الانتقام (١)

وقد حدث أن دعى نمر إسماعيل باشا إلى حفل في قصره ثم
أشعل النار بينهما كان الجنود يرابطون حول القصر ويسدون المسالك
فمات إسماعيل وصحبه جميعا ، فلما سمع بأمر هذه المكيدة محمد بك
الدفتدار سارع إلى شندى للتأخر فرب البلدة وسفك دماء أهلها انتقاما
لمقتل إسماعيل ، ثم وطد أقدامه في أنحاء السودان وأنشأ مدينة
الخرطوم وجعلها قاعدة الحكم

وهكذا تم فتح السودان وعين محمد على حاكما من قبله يسمى
حكمدار السودان ووضع النظم والتشريعات الادارية والمالية ، وبدأ
السودان يقطع شوطا جديدا وهو في جامعة الوطن المصري ، وأصبح
وادي النيل من منبع النهر إلى مصبه تحت راية الوحدة القومية ، بعد
عناء ومشقة ومجهدات طائلة ودماء مصرية عزيزة روت تلك التربة
فأنبتت وحشيتها ووضعت تصميمها الذي لا يمكن فصح عراه أو
تهديم كيانه

(١) جاء في بعض المراجع ان محمد على كان قد أوصى إسماعيل باللباقة والفضيلة
ودمائه الخلق التي تفنى عنها الشجاعة ، واسكن-إسماعيل لم يحفظ الدرس فأساء
معاملة ملك شندى ولطمه على وجهه فأسر له تلك الالهانة وانقم منه انتقاما مروعا

إخماد ثورة المورة

لم يعد ذلك السيف البتار إلى غمده ، بعد أن قضى على حركة الوهايين وانتهى من فتح السودان وإنما ظل مشهوراً فقد كان لديه واجبات جديدة دائماً ، وقد أريد به في هذه المرة أن يعبر البحار ليقضى على ثورة نارية

ذلك أن بلاد المورة (اليونان) كانت جزءاً تابعاً للسلطنة العثمانية يمثل السلطان فيها أحد الولاة وطال عهد هذه التبعية حتى أقبل وقت الحركات الاستقلالية فثابت الأمة اليونانية إلى رشدها وأرادت التحرر من الحكم العثماني وشبت الثورة في كل بلاد المورة فاجتذبت عطف الرأى العام في أوربا وخصوصاً في روسيا

وقد روى أكثر من مؤرخ أن اليونانيين كانوا أكثر الأجناس الخاضعة لتركيا ولاء وأقربهم منزلة ، وكانوا شبه مستقلين لا يشوب استقلالهم غير هذه التبعية الظاهرية التي يمثلها وجود نائب السلطان وما يدفع إلى الاستانة من جزية وعدد من البحارة ينظمون في الأسطول التركي

فلما بلغ اليونانيون مرحلة الرقي والشراء وتناقت نفوسهم إلى الحرية بدأوا ينظمون جهودهم للتخلص من حكم تركيا والحصول على الاستقلال إحياء لمجدهم القديم وإنقاذاً لسمعتهم التاريخية ، وأخذوا يستعطفون الرأى العام فى العالم الأوروبى الذى عطف على هذه الحركة وتنبه إلى ضرورة تحرير هذه المملكة الأوروبية ، وإعادة الحياة الحرة إلى أبناء الإغريق البواسل

وقد أشعل لهيب هذه الثورة فى بلاد اليونان جماعة الاخوان (هيتريا) وهى جمعية سرية بدأت منذ سنة ١٨١٥ تعمل على نشر مبادئ ترمى إلى التآلب على حكم الأتراك وتدعو إلى تحرير البلاد وكان للقاءمين بهذه الحركة اتصال بقيصر روسيا إسكندر الأول الذى أمدهم بالمال والموارد ، بينما وقفت أوروبا من الوجهة الرسمية موقف الحياد ، فى ذلك النزاع الذى نشب بين الأمة اليونانية والدول العثمانية .. *

وفى شهر مارس بدأت الثورة علانية ، وكان يتولى تحريكها

* أرسل مترنخ إلى البرنس جيكا يقول (استقر الرأى نهائيا على عدم التدخل فى شئون الدولة العثمانية وهذا عمل عظيم . . . ومما هو خلىق بالذكر فى تاريخ هذا العصر هو أنه لم يرتفع فى مؤتمر فيرونا صوت واحد يدافع عن الإغريق)
— عن كتاب اليونان السياسى لادوارد دريو —

إسكندر إيسلنتى وهو من ضباط الجيش وكان من ياوران قيصر
روسيا فأرسلت تركيا جيشاً تمكن من القضاء على الثورة وإخماد الحركة
في مهدها وساعد على ذلك أن روسيا لم تستطع مساعدة اليونانيين
بسبب الشواغل السياسية فيها

على أن ذلك لم يكن قضاء نهائياً على الحركة ولم تؤمن عودتها
بعد قليل ، فقد كانت الفكرة مختمرة فى جميع الرؤوس ، وخصوصاً
وقد صبغت بالصبغة الدينية وأصبحت جهاداً مشروعاً يتزعمه الأساقفة
وقد حدث أن قاد أسقف بتراس - وكان يدعى جرمانوس - حركة
كبيرة فى كالفرنيا، جعل شعارها « الإيمان ، الحرية ، الوطن » وسرعان
ما استجابت البلاد إلى الحركة علانية ، وقام الثائرون بفعال مروعة
ضد العثمانيين فى كل مكان واستولوا على كثير من المراكز الرئيسية
وأكثرها من الغارات على المواقع التركية فى البر والبحر ثم استولوا
على تريبوليتزا مقر الحكم وأعلنوا استقلال اليونان وانفصالها عن
السلطنة التركية فى شهر يناير سنة ١٨٢٢

فأجاب السلطان على هذه الحركة بإرسال جيش جرار يتولى
قيادته خورشيد باشا (الذى كان والياً على مصر قبل محمد على) ولكنه
لم ينجح فيما كلف به وباء بالإخفاق وصار هدفاً لهجمات الثائرين
الذين تضاعفت جرأتهم واشتد بأسهم ولذلك منى الجيش العثمانى

بهزيمة ماحقة وانتحر خورشيد باشد على أثرها ، وهذا بينما نشطت حركة القرصنة في جزر الأرخبيل واعتدى الشائرون على مراكب الأتراك وأغرقوا عدداً منها ، وبذلك أصبح النفوذ العثماني مهدداً بالزوال ما لم يسرع إلى إنقاذه سيف مرهف صادق الإنباء

وتلفت السلطان لبحث عن العون فأشار عليه سفير النمسا بذلك السيف الذي مازالت تقطر منه دماء النصر والفتوح ، فأرسل السلطان إلى محمد علي قاهر الوهابيين وفتح السودان * ، فوجد فيها فرصة مواتية لها ما بعدها وأخذ يستعد استعداد واسع النطاق في البر والبحر فقد كان عليه أن يواجه للمرة الأولى قوة أوروبية وحركة ثورية ، تنظر إليها أوروبا بالعطف والمؤازرة ، وتمدها بالعون والقوة ...

وأصدر السلطان فرماناً يقضى بتعيين محمد علي حاكماً على كريت ويخوله ولاية المورة ووجد محمد علي في قبول هذا العرض فرصة لتوسيع نطاق حكمه ونشر نفوذه وتثبيت مركزه السياسي حيال تركيا .

* يذكر بعض المؤرخين أن التجاء الباب العالي إلى محمد علي إنما كان ينطوي على أكثر من معنى واحد ، فالرغبة في الاستعانة بالجنود المصرية كان يقابلها رغبة أخرى في إضعاف محمد علي — باشتراكه في تلك الحرب — وحرمانه من المضي في تنظيم جيشه ومضاعفة قواته

وقد أرخ الجبرتي ذلك الفصل فروى أن الباشا « سافر إلى
الأسكندرية لداعى حركة الأروام وعصياتهم وخروجهم على الزمة
ووقوفهم بمراكب كثيرة العدد بالبحر وقطعهم الطرق على المسافرين
واستئصالهم بالذبح والتقتيل ... فنزل الباشا إلى الأسكندرية وشرع في
تشهيل المراكب المساعدة للدونامة السلطانية ... »

وقد أنفذ محمد علي باشا حملة إلى كريت قوامها خمسة آلاف
جندي بقيادة صهره حسن باشا فبلغت الحملة كريت في شهر يونيو سنة
١٨٢٢ واشتبكت في قتال كبير أحرزت فيه نصرا كاملا وحقت
أهدافها بإنقاذ الحامات التركية المحصورة ، وتضييق الخناق على الثوار
حتى سلموا فاستتببت السكينة وخضعت كريت

هذا بينما كانت استعدادات أخرى تجري على قدم وساق من أجل
حملة المورة التي وضع فيها محمد علي جانبا من آماله، ونظر فيها البشير بالنصر
وعلو الشأن ولذلك عين ولده إبراهيم باشا - القائد الفاتح - سر
عسكر أى القائد العام لجيوش مصر ، فأتيح بذلك لهذا الجندي
الموهوب أن يحل كفايته في ميدان برقية العالم المتحضر ، وأن يقوم
بدور هام يعد أقوى المشاهد الحربية وأعظمها في ذلك الحين

وكانت الحملة مكونة من سبعة عشر ألف مقاتل وسبعة آلاف

من الفرسان ومدفعية قوية وأسطول ضخم مكون من ٥١ سفينة حربية و ١٤٦ سفينة نقل ، وقد وصف الأسطول المصرى بأنه «الأرمادا» كما وصفت الحملة بأنها رد الشرق على الغرب (حملة نابليون)

وكأنما أراد الزمن أن ينصف البلاد المصرية وشعبها العريق فجعل على يدها الرد العاجل على حملة نابليون القريية العهد ؛ فأرسل محمد على باشا حملته هذه رد الشرق على اعتداء الغرب

غادر الأسطول المصرى مياه الإسكندرية فى التاسع عشر من شهر يولية سنة ١٨٢٤ فبلغ رودس فى الثالث عشر من أغسطس وهناك التقى بالأسطول التركى الذى يقوده خسرو باشا وهناك بدأ إعداد الخطط المشتركة على أن بين المؤرخين من لم تفتته مقاومة الحال بين الأسطولين وأنهما كانا يعطيان فكرة صادقة عن مصر الناهضة وتركيا الآفلة ، وقد ظهرت بوادر الضعف والاستخذاء فى صفوف العثمانيين حين تراجعت مراكزهم عند الصدمة الأولى فسبب ذلك هزيمة مشينة ويذكر أحد الضباط الفرنسيين ممن حضروا الواقعة أن الأتراك «نكصوا على أعقابهم ورجعوا إلى مقرهم ، ترتعد فرائصهم ويسكن الرعب جوانحهم وكان فرارهم فى سفن تجارية مسلحة غرّ ضباطها هذا الجبن فاندفعوا وراء أعدائهم حتى أتوا إلى

بوغاز ضيق ثم التحمنا (أى المراكب المصرية) ولكن بعض
فرقاطاتنا رأت من الحكمة أن تخرج من الممعة واستطاع ابراهيم
بجراته وصادق بأسه أن يوقف سيل الاغريق فلما رأى هؤلاء أن أمامهم
خصما قويا لم يعملوا له حسابا من قبل هموا بالرجوع وارتدوا
ارتدادا يشهد لهم بالبراعة . . »

وأعاد ابراهيم النظر فى الموقف فأثر أن يعود إلى كريت حتى
تواتيه الفرصة المناسبة ، وكان قد شعر أن وجود قيادتين للقوات
المشتركة كان من عوامل التفكك والاضطراب لأن توحيد القيادة
أمر جوهري لنجاح العمليات - وقد قيل أن قائدا عاديا خبير من
قائدين كبيرين - ولهذا شكّا محمد على ذلك للسلطان فى كتاب بعث به
إليه فى ١٣ سبتمبر ١٨٢٤ جاء فيه :

« يؤسفنى أن ما طلبته من توحيد الأسطول كله لم يجب وأن هذا
الشرف لم ينله ولدى ابراهيم وليس بخاف أن النصر فى المواقع
الهامة لا ينال إذا عهد بالقيادة العليا إلى أكثر من رجل واحد . .
ذلك أن اختلاف الرأى لا بد أن يؤدى إلى هذه النتيجة السيئة ،
وقد كانت الحوادث الأخيرة مع الأسف الشديد أكبر دليل على
صدق هذه العقيدة . . »

وعلى أثر ذلك صدر الأمر بتقليد ابراهيم باشا القيادتين البرية

والبحرية فأصبح القائد الأعلى للحملة المصرية العثمانية
وكانت عودة إبراهيم إلى كريت مدفوعة بعدة أسباب منها تخاذل
الأسطول التركي وفراره من كل واقعة وتضاؤل الأمل في كسب
العمليات البحرية إزاء خصم متمرن على حرب البحار وأعمال
القراصنة... كما قرر إبراهيم باشا الانتقال إلى الميدان البري ، الذي
يجيد فيه العمل والذي سيقدر فيه المصير

نخمسة الأشهر التي انقضت على إبحار الأسطول من الإسكندرية
إنما قضيت في جهود شاقة ومتاعب لا هوادة فيها ومخاطر تتجدد كل
يوم ، وقد ذكر مسيو دوان في كتابه « الفرقاطات الأولى من
أسطول محمد علي » أن ما أبداه إبراهيم باشا في هذه الظروف من
الثبات ورباطة الجأش ما يستوقف النظر ، فإن قيادة أسطول بحري
تصعبه عمارة من سفن النقل لمن المهام التي لا يسهل الاضطلاع بها
وأن إبراهيم باشا في قيادته عمارة من مائتي سفينة نقل تقل نحو
عشرين ألف رجل من جنود وبحارة قد اضطلع بمثل المهمة التي حملها
بونابرت من قبل — مع تفاوت الفرق بين الموقفين — حينما اجتاز
البحر الأبيض في أواخر القرن الماضي بعمارة من ٢٨٠ سفينة نقل
٢٨ ألف مقاتل ، وإذا تذكرنا أن مصر لم يكن لها إلى ذلك الحين
أسطول منتظم ولا تقاليد بحرية ولا هيئة من الضباط البحريين

الأ كفاء ولا العدد الكافى من البحارة المدربين ، وكان على إبراهيم باشا أن يبتكر وينظم على الفور كل ما يلزم الحملة البحرية من سفن حربية وسفن للنقل ورجال وعتاد ، وأن يروض نفسه على ركوب البحر والقتال بين أمواجه وأهواله .. ، إذا تذكرنا كل ذلك فإنه يحق لنا أن نعجب كيف أن العمارة التى خسرها محمد على أمكنها أن تبقى خمسة أشهر تجوب البحار دون أن تتفكك أو صالها ، وكيف استطاعت أن تثبت أمام الوثبات والهجمات الشديدة التى استهدفت لها وأصابتها من عدو له حظ كبير من المهارة من غير أن تخسر سوى سفينتين حربيتين وعدة نقالات ... ولا شك أن هذه الحقائق تدلنا على مضاعف عزم إبراهيم باشا وعلو همته وتطالعنا بما تحتويه نفسه من صفات عظيمة مع مزايا الرياسة والقيادة ، كما أن مواقفه فى ميادين القتال ورباطة جأشه فى مغالبة المحن تدل على شجاعته الكبرى التى لا يسع أى إنسان إلا أن يبادر إلى الإعجاب بها ...

وقد وصف لين پول شخصية إبراهيم باشا فقال : هو رجل لا تفارقه الهيبة ولا حب العدالة ، أمره مطاع ، ثابت قوى العزيمة شجاع رحيم لين العريكة ، ولكنه شديد الحرص على النظام ، يطيعه الناس ويخشونه أكثر من سواه لأن فى يده العقاب ، ومع ذلك التفت حوله قلوب صغيرة ... دائم اليقظة لا يغفل عن الرقابة ، يدهش الناس



ابراهيم باشا « الفاتح »

بسرعة تنقله بين الجند وكثيراً ما ينام على الثلج في العراء ليضرب
بذلك المثل لغيره ، وهو حذب على جنوده يعطف عليهم ويحادثهم
ويبث في قلوبهم الشجاعة ، وتراه في ميدان القتال رابط الجأش لا يفارقه
الهدوء وكثيراً ما استعان ببعد نظره وصدق فراسته على كشف ما يبث
له من المصايد وما ينصب له من المكائد ...

ولولا جهود إبراهيم لما استطاع والده أن ينجز نصف
ما أنجز »

وكان إبراهيم رجل حرب ورجل حكم ، فكان يعمل بقلب
المحارب وعقل السياسي ، ويضع خطته على أساس الظواهر العسكرية
والمعنوية في خصومه ، ولذلك أخذ يتتبع أخبار الثورة اليونانية
الداخلية التي انتهت بحرب أهلية بين الأحزاب فرأى أن يسرع إلى
بلاد المورة منتهزاً هذه الفرصة المواتية ، وفي هذه الأحوال المضطربة
التي تضاربت فيها قوى عدوه أقلع بعارته إلى ميناء (مودون) الميناء
الوحيد الذي بقي في يد الأتراك - وأنزل جنوده إلى البر في
فبراير ١٨٢٥

وبدأت الأعمال الحربية بإنفاز جيش إلى نفارين وكانت من
أهم مراكز الثورة استعداداً فشرع إبراهيم في حصارها وحدث في
سبيل ذلك قتال طويل الأمد متدفق الدماء دون أن يتم صنع ذلك

الطوق من الحديد والنفار الذي أراد أن يحصر فيه المدينة ، وكان استئصال اليونانيين في نفارين مضرب الأمثال ، فقد كانت معقد آمال الثوار وقاعدتهم المنيعه ، ولذلك جاءت الإمدادات الوفيرة التي قدرت بثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل ، فسارع إبراهيم إلى لقائهم وحدث قتال مرعب ومعركة مروعة أودت بالنجيدات اليونانية وقضت عليها ، نجف إبراهيم إلى مشارف نفارين وشدد عليها الحصار وأذاق أهلها ويلات الحرب

ثم أقبل مدد جديد من المتطوعين الشبان ، فقد كانت الثورة تغذى بالخطب والأشعار والفصول الحماسية التي تدبجها أقلام شهيرة ، وكان المدد الجديد يبلغ تسعة آلاف رجل وجهتهم نفارين لرفع الحصار عن المدينة وطرد الغزاة عن أرض الوطن

وشعر إبراهيم بما جد في الموقف ، ولم يكن قد قضى على روح المدينة المحاصرة ، فأصبح بين نارين ، وعند ما تأزم الحال تظاهر العبقريّة العسكرية ويفتح التاريخ صفحة للقائد الكبير ... ولهذا فإن تصرف إبراهيم باشا في هذا الموقف وأمثاله لما يحله في قائمة كبار العسكريين فإنه لم يتخاذل ولم يضطرب ولم يرفع الحصار عن نفارين كي يواجه القوة الأخرى المقبلة ولكنّه وضع خطة تشهده بالحصافة والجرأة ، فقد نظم مدافعه وأحاط بها المدينة ، وترك جزءاً من جيشه لتثبيت

حاميتها ثم خرج ببقية جيشه للقاء الإمداد وأفواج المتأولين الملتهمين حماساً وعزماً ، فأمر جنوده فاحتلت مواقعها ، ونفذ أحدث التعليمات العسكرية من نواحي الإخفاء والوقاية والاستتار ، واستخدم المفاجأة كأمر القواد المصريين وأمر بعدم فتح النيران حتى تصدر الإشارة الخاصة بذلك وكانت الإجراءات ترمى إلى الإسراع في النستر حتى يمكن مفاجأة العدو فلما أقبلت القوات اليونانية بصارت على مائة ياردة ، أعطيت الإشارة المتفق عليها وفتحت النيران بهت القذائف وفوجئ العدو مفاجأة تامة أذهلته وأصابته بخسائر فادحة ثم انتهت المعركة وأطل جنود مصر على شراذم الهاربين وأفواج الأسرى ونظروا الميدان الأوروبي تحت أقدامهم غاصاً بأشلاء القتلى وجثث الجرحى والأسلحة والمعدات التي دمرت أو أسرت

وقد وصف المؤرخون هذه الموقعة بأنها كانت نصراً مبيناً للجيش المصري ومثلاً صادقاً على حسن استعداد المصريين للحرب وقوة روحهم المعنوية وبسالتهم في القتال ، كما كانت شهادة ناطقة بصفاتهم الحربية العالية وتقاليدهم الخلقية فلم ينهبوا ولم يضلوا وإنما أحرزوا انتصاراً سريعاً كريماً

وعاود إبراهيم حصار نفارين ، وكان قد أدرك أن الحصار

لا طائل من ورائه ما دامت الإمدادات والمؤن تصل إلى المدينة عن طريق البحر فصمم على قطع ذلك الطريق وذلك بأن يستولى على جزيرة أسفاختريا - قفل نفارين الذى لم يفتح بعد - فأرسل إليها السكولونيل سيف مع ١٢٠٠ مقاتل ، وحدثت في سبيل الاستيلاء على تلك الجزيرة معارك خطيرة بسبب ما وقع فيها من صراع عنيف وضحايا عديدة ؛ وكان اليونانيون يدركون أهمية أسفاختريا التى كانت القفل الأخير الذى يسد آخر أبواب نفارين ؛ وقد حطم إبراهيم ذلك القفل بسيفه وانفتح الباب فعلا ...

أما تفصيل ما حدث فهو أن حامية الجزيرة كانت قد عززت وأمدت بالمدافع والأسلحة ، فلها أقبلت السفن المصرية بدأ التراشق بالمدافع وفتحت النيران من الجبهتين ، ولم تمنع معركة النيران هذه من تقدم الجنود المصرية رغم ما يحيط بها من مكروه حتى بلغت الشاطئ ونزلت إلى البر ، وبدأت معركة عنيفة تلاقت فيها الحراب والبنادق وتصارع فيها الجنود يدا بيد وتبدلت أزمنة المعركة مرة بعد مرة حتى استقرت أخيرا فى يد المصريين ، ورفع العلم المصرى على الجزيرة بعد معركة مشرفة بلغت حظا كبيرا من البسالة والنظام والتضحية .

وبذلك أكملت الحلقة الحديدية حول نفارين برا وبحرا وقطعت

طرق النجدة ، وأخذ ابراهيم يشدد الحصار على المدينة ويذيقها
الويلات ، وحدث أثناء ذلك أن هاجم الثوار المراكب المصرية في
مودون - وذلك في شهر مايو ١٨٢٥ وانجالت المعركة عن حريق
كبير أحدثته قاذفات اللهب اليونانية - الحراقات - فالتهمت المراكب
المصرية واحترق عدد منها وانصلت النار بالشاطئ وانتقلت إلى
المدينة فحربت جزءا كبيرا ، والتهمت مخازن الذخيرة وكان لهذا الحادث
وقع سيء ولو أنه لم يؤثر على الموقف الحربى الذى كان قد استقر نهائيا
وكان ابراهيم باشا قد أرغم حاميات نفارين على قبول هزيمة مريرة
فراخت قوات الدفاع واستسلمت ودخل الجيش المصرى القاعدة
اليونانية الشهيرة مزهوا بأكاليل النصر والبطولة .

وانتقل القتال إلى ميناء كلامانا فدارت معارك خطيرة بسبب ما
عرف به الجبليون من شجاعة وبأس ولسكن فاتح نفارين لم يكن بالذى
يمكن صده بسهولة ، كما كان جنوده البواسل قد ثملوا بكأس النصر ،
فاندفعوا كالمردة وأذاقوا البلدة الويل حتى استسلمت ، رمضت جنود
النصر تجتار قلعه بعد قلعة وحصنا فى أثر حصن حتى بلغت تريبولتزا
عاصمة المورة ومعقل الشوار ومكن الباقى من الأهل

وكانت البلدة منيعة صعبة المرتقى ، تتحكم فى الطريق الجبلية الوعرة
يزيد فى مناعتها أنها كانت مركز المقاومة الشعبية فند تحصن فيها



« خريطة حروب المورة »

الشوار والأهالى ، واطمأنوا إلى مناعتها فأعدوا فيها ما استطاعوا
من قوة . .

وبينما كان إبراهيم يطوى الطريق بجنوده المظففة ويحتاز المناطق
الجبليّة الوعرة مثلها كان نابليون يفعل . . كان الشوار قد أنفذوا
جيشا عند أحد المضائق - مضيق كورسييتكا - بعيدا عن البلدة ليسدوا
الطريق في وجهه ويتخذوا موقعا دفاعيا يحقق المبدأ القائل بالدفاع
بعيدا عن الغرض . . ولكن الجيش المصرى استطاع أن يحدد
بقوات العدو وأن يذيقها هزيمة من الطراز الأول فطارت
نفوسهم شعاعا وانهارت روح المقاومة الأهلية وأخلى الشوار تريبولتزا
ودخلها إبراهيم باشا فاتحا في ١٣ يونيه ١٨٢٥

وبدأت عمليات تنظيف الميادين وإخماد الثورات وتدمير
المقاومات التى كانت تنشب فى مكان بعد مكان حتى تم لإبراهيم
باشا بسط نفوذه على شبه جزيرة المورة ، ولم يبق غير الاستيلاء على
نوبلى ، عاصمة الحكومة الثورية ، فأخذ يتأهب لغزوها ، ولكن
صوتا آخر كان يدعو وكان عليه أن يلبيه وذلك أن الجيش التركى
الذى كان يحارب الثائرين تجاه مسيولونجى قد أصبح فى مسيس
الحاجة إلى المساعدة ولم يعد فى إمكانه الإطباق على المدينة بغير عون
قوى فأرسل قائده رشيد باشا إلى إبراهيم طالبا المدد ، وبعث إبراهيم

إلى القاهرة برسالة يمتاذن فيها والده في أداء هذا الواجب فأذن له وأمه بحملة جديدة وافية * ، فقد كان الاستيلاء على مسيولونجي يساوى الاستيلاء على نصف بلاد اليونان ، وتقع مسيولونجي في مدخل خليج لبيانت على أرض منخفضة تمتد إلى سيفوح جبلية لا يمكن الوصول إليها من الغرب أو الجنوب تستنفها أكوام الرمال والمخاوض والجزر المتناثرة ، والأسوار والأبراج التي تطرز الشواطئ.

وكان إبراهيم قد فرغ من امتلاك المواقع البحرية في مودون وكورون ونفارين وتريبولتزا غير أن الأمر لم يكن قد استتب له نهائياً ، فقد كان الثوار يذهبون انشغاله في موقع ليغيروا على موقع آخر ، وحالة كهذه لا يمكن علاجها بغير القضاء على الثارين نهائياً وتعقبهم في جميع أنحاء البلاد وشل حركاتهم والقبض عليهم وكان هذا يقتضى القيام بعمليات متقطعة متقلة سريعة

وكان الجيش التركي بقيادة الصدر الأعظم رشيد باشا يحاصر المدينة بغير نجاح رغم هجماته العديدة فغضب السلطان وأرسل إليه يقول : « إما مسيولونجي وإما رأسك » فجمع رشيد كل قوته في هجمة جديدة لم يخرج منها بطائل فكتب إلى إبراهيم باشا في أوائل

* مكونة من ثمانية آلاف جندي وعقاد من المدافع والذخيرة

يناير ١٨٢٦ يدعو إلى معاونته في الاستيلاء على المدينة
فلما استجمع ابراهيم أهله للوثبة الجديدة رأى أن يترك
حاميات كافية في سائر بلاد المورة ، عاهدا بقيادتها إلى سليمان باشا
وعبر خليج لبيانت ونزل على مقربه من مسيولونجي في فبراير ١٨٢٦
فحاصرها برأ وبقيت الناحية البحرية بابا مفتوحا لإمداد الثوار من
الخارج ثم توجه إلى مسيولونجي وكانت كفة الأمور تبدو في جانب
الثوار الذين كان لهم التفوق البحري والسيطرة الكافية التي تضمنت
نوالى وصول الإمدادات إلى المدينة

وشرع ابراهيم باشا في مهاجمة المدينة فأرسل نصف قواته إليها
فقوبلت بنيران شديدة وهجمات مضادة مفزعة فارتدت على أعقابها
بعد خسائر شديدة ثم تقدمت بقية القوات فاستدرجت إلى أرض
ملغومة وفوجئت بانفجارات هائلة أبادت الصفوف الأولى وردت
الباقين إلى حيث أعيد تنظيمهم ثم أخذ في وضع الخطة الجديدة
وفي فجر ٢٤ أصلى إبراهيم باشا المدينة بألف قنبلة من مدافعه
وبعد يومين جدد الهجوم دون أن تتراخي قوات الدفاع ؛ ولم يعد
من سبيل الى غزو مسيولونجي قبل أن يقفل البحر عليها وتمنع
الإمدادات عنها

ثم بدأت عمليات جديدة جاء ذكرها بالتفصيل في المحفوظات

الرسمية بسراى عابدين - وثيقة رقم ١٠ - وقد جاء فيها
حوادث يوم ٣ شعبان سنة ١٢٤١ (١٣ مايو سنة ١٨٢٦)
وهناك جزيرة صغيرة تسمى (دوله) تقع على مسافة
نصف ميل من جزيرة أنداليكوس القائمة في الناحية العربية من حصن
مسلك وعلى مسافة ٣ ساعات منه . ولما كان الكفار قد لاحظوا
أن جزيرة (دوله) هذه إذا ما حصنت عزز تحصينها مراكنهم في
أنداليكوس فقد أقاموا في (دوله) طابيات ركزوا فيها ٦ مدافع
ووضعوا هناك نحو ٣٠٠ من رجالهم للدفاع عن الجزيرة ، والواقع
أن الجزيرة القائمة بالقرب من أنداليكوس من شأنها أن تعزز
مركز أنداليكوس وتحميها على نحو ما اتضح من معاينة موقعها ،
ولذا فقد رأى وجوب الاستيلاء على دوله هذه تمهيداً للاستيلاء
على جزيرة أنداليكوس

وفي ضحى ذاك اليوم تحرك مولانا السر عسكر من مقر
الجيش في طريقه إلى المكان المقصود

ولما أن وصل الروم إلى والسر عسكر المظفر ومن في معيتهما
من العساكر المنصورة إلى نقطة هناك وجدوا أن القائد البازارجيقل
وعساكره قد تخلفوا في مكان وعبر المسالك تكثفه المستنقعات وكانوا
يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى وهنا أخذ السر عسكر المشار إليه

يستنفّر العساكر بصوته الداوى ويحرضهم على مهاجمة الكفار فاندفع الجميع نحو الجزيرة يخوضون عباب الماء والطين . ولما أن أصبحوا على مقربة من الجزيرة راح الكفار يطلقون عليهم نيران المدافع والبنادق وكانت العساكر فى زحفها على الجزيرة قد اجتازت ٣ مستنقعات وتوقفت عند المستنقع الرابع القريب من إحدى طابيات الكفار على أن ثمة قوة من عساكر الجهادية كانت تتقدم إلى الأمام وكان عساكر الأناضول وعساكر كريد قد نصبوا أعلامهم عند آخر المستنقع الثالث وأوشكوا أن ينهزموا فى حين كانت عساكر الجهادية التى تتقدم إلى الأمام تقاتل بروح الشجاعة والبطولة وتضحى بنفوسها فى سبيل الدين والدولة

على أن عساكر « الروم » الأناضول وعساكر كريد كانوا إذ ذاك على وشك الانهزام . وقد تخلفوا عن تتبع عساكر الجهادية وحاولوا أن يعودوا إلى ناحية البر . وما أن لمح منهم ذلك السرعسكر المظفر حتى امتشق حسامه وصاح بالقوم : لست أنا الذى يولى الأدبار يوم القتال إنما أنا من ترونيه يخوض غمار الوغى بين الدم والوحول . ثم نزل عن صهوة جواده وتقدم نحو الماء الموحد حتى غاص فيه إلى عنقه وأخذ يضرب بسيفه بعض العساكر الذين أرادوا العودة إلى البر ويقوى قلوب أهل الإسلام ويحثهم على مقاتلة الكفار

ويعلم أن الذين يتقاعدون عن مقاتلة الكفار ان ينجوا من سيفه .
فثارت الحمية في نفوس العساكر واعتمدوا على الله وعلى ما وعد به
أهل الإسلام من نصر حيث قال : (وكان حقا علينا نصر المؤمنين)
واستمدوا العون منه سبحانه وتعالى ومن روحانية نبيه الذى خاطب
الله بقوله : (حرض المؤمنين على القتال) وهتفوا جميعهم : الله . الله .
واقترحوا الماء فى طريقهم إلى الجزيرة . وبعد أن تخطيط معظمهم فى
الأوحال واعتمد البعض الآخر على السباحة بلغوا شاطئ الجزيرة .
وفى تلك الآونة كان حسين بك الذى عهد إليه بمهاجمة الجزيرة من
ناحية البحر قد وصل بالمرأى كب التى تقل عساكره إلى مسافة . ٥ خطوة
من طابيات الجزيرة وأخذ يصلى الكفار نيران المدافع والبنادق
ويبث الرعب فى قلوبهم . وإذ ذاك أبدت العساكر القادمة من طريق
البر روح البسالة وساعدتها القوة البحرية فى القتال . وتقدم الأغا
الجوقدار السالف الذكر من الناحية اليمنى بينما زحف البكباشى عثمان
أغا من الناحية اليسرى وهاجموا متاريس الكفار واستولوا عليها .
وعلى أثر ذلك خرجت إلى الجزيرة جميع القوات الزاحفة عن طريق
البر والبحر وأمعنت فى قتل الكفار الذين انهزموا شر هزيمة وكان
عددهم ٣٠٠ كافر فلم ينج منهم سوى ٢٠ كافر إذ أن أكثرهم لاقوا
حتفهم داخل متاريسهم والبعض الآخر ألقى بنفسه فى الماء من شدة

وعبهم على أمل أن يصلوا إلى جزيرة أنداليكوس ، ولكن العساكر
تلاقتهم بالحرب حيث ذهبوا الى الجحيم . وهكذا تم والحمد لله فتح
هذه الجزيرة .

وكان دولة السر عسكر المظفر يرغب في الاستيلاء على
أنداليكوس هذه إلا أن الغزاة كانوا في حالة تعب من جراء ما لاقوه
من الصعوبة في فتح جزيرة دوله . وكان لا بد لهم والحالة هذه من
الراحة سيما أن الوصول إلى جزيرة أنداليكوس يحتاج الى قوارب
ومراكب كثيرة ولذا أرجى ذلك الى فرصة أخرى . وقد كتب
دولة الباشا السر عسكر إلى دولة محرم بك سر عسكر الأسطول
المصرى بشأن هذه القوارب والمراكب المطلوبة لهذه الغاية . وعلى
أثر ذلك جمع دولة محرم بك جميع قبطانات السفن التي في معيته وخاطبهم
بقوله : إن هذه المهمة هي من أجل الخدم التي تقدم للدين المبين المحمدي
وللسلاطنة السنية فاذهبوا لنضحوا النفس والنفيس في سبيل الحضرة
السلطانية وتبدوا منتهى الشجاعة والإقدام . ولقد أدت به
حماسة إلى إرسال قبطان السفينة احسانية التي يركبها وقبطان
السفينة ثريامعهم ما نحو ٣٠ فلوكة وهي مزدانة بالأعلام ومشحونة
بجميع لوازم الحرب حيث تولت هي وقوات حسين بك ميرالاي
٨ جى بيادة سالف الذكر تطويق جزيرة أنداليكوس من جميع

جهاثها وراحت تضيق الخناق على الكفار الذين هالهم أمر
هذه القوات وأدركوا ألا حيلة غير التسليم ، فأرسلوا يطلبون
منحهم الأمان ... »

وفي هذه الوثيقة تتضح روح الامتثال التي كان عليها الجيش
المصرى ، وما كان لقائده الكبير من بسالة ونفوذ وقد انتهت المعارك
بالاستيلاء على الحصون التي كانت تحمي مسيولونجى وقفسل نوافذ
البحر ، فبدأ دور العمليات البرية وتشديد الحصار على المدينة فلما
تم له ذلك دعا القائد المصرى الحامية إلى التسليم حقنا لدماء لا موجب
لإهدارها وإبقاء على منشآت يفضل بقاؤها ، ولكن أهل المدينة -
وكانوا مشهورين بالبسالة وحب التضحية - رفضوا ما عرض
عليهم وآثروا المسوت على التسليم ولذلك استمر الحصار وشدد
المصريون على المدينة حتى إذا نفذت المؤن التي كانت القوات
المحصورة تعتمد عليها ولم يعد في الإمكان وصول مؤن أخرى
تعرضت المدينة لخطر الجوع وانهارت المقاومة الحربية فطلبوا
التسليم على أن يخرجوا بأسلحتهم وعتادهم - فرفض إبراهيم ذلك
العرض أكثر من مرة ولذلك أجمع اليونانيون أمرهم على الخروج
للقتال وكان عدد سكان المدينة تسعة آلاف منهم ثلاثة آلاف
قادرون على القتال ومع ذلك اتفقوا « مدفوعين بشعور حمية قلبها

يوجد له نظير في التاريخ أن لا يبقوا أحياء وأن ينتظروا مجيء
الاعداء فيجعلون أنفسهم بأنفسهم طعمة لليران .. »

وأخيراً استقر رأى المدافعين على البدء بالأعمال التعرضية
فخرجوا لصد قوات الحصار عن معابهم ، فقابلهم هؤلاء بنار حامية
شردت جموعهم وحصدت غالبيتهم فارتدوا على أعقابهم وتفرقوا
والتجأ بعضهم إلى مستودعات الذخائر ومراكز الدفاع فتمسكوا
بها رافضين التسليم مؤثرين الموت على الأسر فعبروا بذلك عن روح
وطنيه جبارة وتقاليده العسكرية مجيدة

وانتهت مسيولونجى إلى يد ابراهيم الفاتح فى ٢٣ ابريل ١٨٢٦
بعد قتال عنيف ودماء مראה وتخریب وتدمير أصبحت المدينة بعدها
أطلالا وقد فقد الجيش المصرى ألف قتيل بينما فقد الثوار ستة
آلاف ... وبعد هذه الواقعة الكبيرة ارتد إبراهيم باشا إلى المورة
وشرع يعد العدة للقضاء الأخير على الثورة اليونانية التى طال
أمدها

ونظرت أوروبا لاهثة وهى ترقب الانتصارات المصرية
المتوالية وراعها ما حل بالبلاد اليونانية وأهلها من تدمير وهزائم
فلا يمض الوقت حتى يذهب ذلك « الشعب الاغريق » وتسقط
اليونان مزرجة بدمائها فيتحكم فيها « الهلال » .. وراح دعاة إنقاذ

أبناء الحضارة القديمة يستصرخون الرأى العام ويحثون أوروبا على الوقوف فى وجه الفاتح المصرى الذى شهّر به فى دعاياتهم ووصف بأنه Atilla الذى يستبيح الدماء ويخرق حرمة القوانين

وكان سقوط ميسولونجى بمثابة فتح الطريق إلى أثينا ثم القضاء على البقية الضئيلة الباقية من المقاومات ، ولذلك ازدادت درجة الاستفزاز وبدأت الحكومات تتقدم بخطوات ثابتة إلى جانب الحركة الثورية

وقد خطت دول أوروبا خطوة صريحة إلى جانب الثوار حين سقطت ميسولونجى وكانت الحركة الاستقلالية قد صادفت تأييدا لم تسمح الظروف السياسية بإظهاره من الناحية العملية وكان المناصرون للثورة من الكتّاب والشعراء ورجال الدين يثيرون الهمم ويستصرخون الرأى العام لمساعدة اليونانيين وإنقاذ أبناء الحضارة الإغريقية

وقد بدأ التدخل الروسى فى سنة ١٨٢٥ عند ما تولى نقولا الأول عرش روسيا وخشيت إنجلترا أن يكون لتدخل روسيا ما بعده لإقامة نفوذها فى بلاد البلقان فرأت أن تدلى برأى فى الموضوع وتفاهمت الدولتان على الحلول المعقولة وقد تمخضت المباحثات فى يناير ١٨٢٦ عن تعهد يضمن لبلاد اليونان نوعا من الاستقلال المقيد ترعاه إنجلترا وروسيا وأن يكون فى اتفاق ولنجتون - نسلرود مجال

لتوقيع ممثل فرنسا، وكان الدول أخذت تتنافس لنيل شرف الدفاع عن اليونان وكان القضاء المبرم الذى أصاب اليونان فى معركة ألا كروبولس (عقب ميسنولوجى) قد عجل بوضع الاتفاق فعقدت معاهدة لندن فى ٦ يوليو ١٨٢٧ وفيها رأت الدول الثلاث التدخل فوراً فى المسألة اليونانية على أساس استقلال اليونان داخلياً مع استمرار تبعيتها لسلطان تركيا وطلبت إلى الجانبين وقف القتال .. وقد اتخذ هذا القرار فى الوقت الذى كانت حالة الثوار تدعو إلى اليأس وتشرف بهم على التسليم فأحدث ذلك تأثيراً مغنوياً رائعاً بيننا قوبل بخيبة أمل وأسف لدى الباب العالى

ثم جد جديد فى المسألة اليونانية بسبب ما حدث من تنازع بين زعماء الثروة وانقسام الثائرين شيعاً وأحزاباً فضربت الفوضى أطنابها واستعرت نار الحرب بين كل زعيم وزعيم وأخذت الأحزاب المتنافسة تترشق بالمدافع فأريققت الدماء وشاعت الفوضى وعم البلاء ولم تعد فى اليونان سلطة معترف بها بل صارت مباءة للقتلة والمتهورين والقرصان .. وواجه إبراهيم هذه القوى المجرمة التى حرقت كل موانيه مقررأ أن يقضى عليها بغير شفقة وأن يشن حرب المدنية على القرصنة وأعمال التدمير والإتلاف

وكانت إنجلترا وفرنسا وروسيا قد انتهت إلى خطة مشتركة

ترمى إلى التدخل بين تركيا واليونان ولذلك طلب إلى الفريقين إيقاف القتال على قاعدة استقلال اليونان الداخلي مع بقاء السيادة التركية وعرضت الوساطة على الباب العالي حتى إذا رفضها كان للدول المتفقة على معاهدة لندن أن تبدأ التدخل العملي وتباشر استخدام القوة أزاء ذلك بالرفض وكان الحلفاء يتوقعون رفض تركيا لهذا التدخل فاستمهلوها شهرا وقرروا استخدام القوة فأبحرت أساطيلهم إلى ميناء اليونان وأنفذت انجلترا أسطولاً مكوناً من ١٢ سفينة بقيادة الأميرال كودرينجتون إلى بحر الأرخبيل ثم لحق به أسطول فرنسي مكون من سبع سفن تحت قيادة الأميرال ريتي ثم قدم الأسطول الروسي وعدده ثمانى سفن بقيادة الأميرال هيون وتولى القيادة العامة الأساطيل الثلاثة الأميرال الإنجليزي كودرينجتون وقد اتخذ مرا كزه بن جزيرتي هياوترميا ولسكن ذلك لم يمنع وصول الحملة المصرية الجديدة إلى أهدافها رغم المحاولات التي أريد بها منع ذلك الوصول

وكان محمد على قد أرسل حملة جديدة فائقة القوة كثيرة العتاد إلى بلاد المورة أبلغت من الأسكندرية في أوائل أغسطس ١٨٢٧ بقيادة الأميرالاي محرم بك وكانت مؤلفة من ١٨ سفينة حربية مصرية و ١٦ سفينة تركية و ٤ سفن تونسية و ٦ حراقات و ٤٠ مركباً لنقل الجنود وكانت الحملة مؤلفة من ٦٠٠ جندي وقد وصلت هذه التجريدة

الضخمة إلى ميناء نفارين في ٩ سبتمبر سنة ١٨٢٧ مع أسطول تركي آخر تحت قيادة الأمير الماي طاهر باشا فانتظا مع القوات الأخرى التي يتولى إبراهيم باشا قيادتها العامة في البر والبحر

ولما أخفقت خطة الأساطيل المتحالفة في منع الحملة المصرية من الوصول إلى نفارين رأى القائد العام أن تنقل هذه الأساطيل إلى ذلك الميناء لإملاء شروط الحلفاء على إبراهيم باشا وفي يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٨٢٧ وفد رسول الأميرال كودرنجتون لإبلاغ إبراهيم باشا مطالب الحلفاء طبقا لمعاهدة لندن وما تقرر من وقف القتال ومنع القوات من القيام بأي عمليات حربية أو بحرية

وقد نظمت عدة اجتماعات اتفق فيها قواد الأساطيل المتحالفة على أن يوضحوا لإبراهيم باشا قرارات الحلفاء وما تنطوي عليه من خطر ماحق لقواته إذا لم يؤخذ بها ويروى المؤرخون أن إبراهيم كان ثابتا رزينا في مقابلاته وأحاديثه وأنه كان موضع الإعجاب فلم تأخذه الرهبة ولم يضعفه إجماع ثلاث دول عظمى على مناوآته وإنما اختط طريقا يليق بفطائته السياسية ولا ينقص شجاعته وتقاليده العسكرية فأرسل إلى الآستانة والقاهرة يطلب رأى أصحاب الرأى وبقي هو في ميدانه جنديا باسلا ينتظر الأمر فيصمدع به فورا

وقد جاء في مذكرة أمير البحر سير إدوارد كودرنجتون عن

الاجتماع الذى عقد فى نوارين مع إبراهيم باشا يوم ٢٥ سبتمبر ١٨٢٤ ما يأتى :بدأ أمير البحر حديثهما بأن قالاً لإبراهيم أنه على أثر المعاهدة المعقودة بين إنجلترا وفرنسا وروسيا أصبح واجباً مفروضاً عليهما أن يمنعا جميع الإمدادات التى ترسل بطريق البحر ضد بلاد اليونان . . . وقرأ له بالتفصيل ما عندهما من التعليمات فأجاب إبراهيم بأن أمير البحر يعرفان من غير شك أنه جندى مثلهما وأن إطاعة الأوامر فرض واجب عليه كما هى فرض واجب عليهما وأن الأوامر التى لديه تحتم عليه أن يهاجم وأن واجباته مقصورة على العمل فقط وليس المفاوضة ولذلك يفوض رأى لرئيسه الأعلى

ولم يفت إبراهيم ما تنطوى عليه نيات الحلفاء وخططهم فقد لاحظ أنهم يقصدونه دون اليونانيين ويفرضون عليه من التعليمات والأوامر ما لا يفرضون على أعدائه ، فلم يكونوا حكماً صادقين وكان سوء النية ظاهراً فى تصرفاتهم فقد تركوا اليونانيين أحراراً فاستمروا على أعمالهم العدائية فاستفحل أمرهم وأخذوا يهاجمون الحاميات المصرية ، فالهدنة التى أرادها الحلفاء قد أصبحت بينهم وبين إبراهيم أما اليونانيون فقد استمروا على فعالهم المنافية للهدنة وحاول إبراهيم باشا أن يحول دون وقوع الكارثة فكان يشكو إلى

الأميرال كندرنجتن فلم يلق إجراء فعلياً من جانبه كما ذكر الأميرال ريني « أنكم تطلبون منى وقف كل حركات القتال ، وفي الوقت نفسه تزكون الأروام يفعلون ما يشاءون ، أن هذا ليس من الانصاف في شيء .

وكان إبراهيم باشا مخلصاً في تنفيذه لشروط الهدنة ولم يفكر في نقضها قبل أن ينقضها أعداؤه فلما يئس من عدالة المراقبين وخشى على قواته التي يهاجمها الثوار ، أنفذ حملة إلى باتراس لانتقاد الحاميات المصرية فأرسل كندرنجتون انذاراً إلى إبراهيم باشا فاضطر للعودة إلى نفارين حيث جاءت إليه أوامر محمد علي باشا بالتزام خطة السلم وتجنب التحرش والاصطدام حتى تصل التعليمات النهائية من الأستانة ، ولهذا قرر إبراهيم باشا اتخاذ خطة الدفاع في نفارين

وقد أجاب أميرال البحر أنهما يدركان ما يشعر به رجل شجاع مثله في هذه الظروف وذكره بأنه إذا خرج إلى عرض البحر متحدياً تحذيراتهما الودية فأنهما مضطران إلى تنفيذ ما لديهما من الأوامر فأجاب إبراهيم أنه يتعهد بوقف جميع العمليات الحربية التي تقوم بها القوات البرية والبحرية المسكونة لحملة الاسكندرية حتى يتلقى رداً من الأستانة والاسكندرية، ووضع يده على صدره وقال

إنه وعد مقدس غير إننى لا أرى من العدل أن تفرضنا على ذلك
وتسمحا لليونانيين بأن يواصلوا أعمالهم العدائية

وتوجد نقطة دقيقة فى هذه المذكرة كانت سبب أحداث
جسيمة فيما بعد وهى ناتجة عن سوء فهم فقد كان إبراهيم باشا يعتقد
أن ما حرم عليه هو استخدام قوات « حملة الاسكندرية » وبذلك
رأى أن له الحق فى أن يعالج المواقف الناشئة باستخدام أى
قسم من قواته عدا « القوات البرية والبحرية المكونة لـ حملة
الاسكندرية ... »

هذا بينما فهم أمير البحر البريطانى أن الاتفاق يشمل جميع
السفن التركية والمصرية

ولذلك فعندما بعث إبراهيم باشا ببعض قواته فى كلباتا وأخذ
يستعد لمهاجمة مانيا أرسل اليه أمراء البحر الثلاثة أن « هذه الأعمال
تناقض شروط الهدنة التى وعدتم سموكم بشرفكم أن تحافظوا
عليها ... »

أما ما حدث بعد ذلك فكان موقعة نوارين

فى العشرين من شهر أكتوبر سنة ١٨٢٧ دخلت سفن
الأساطيل الثلاثة المتحدة ثغر نوارين

وكانت السفن المصرية والتركية مصطفة فى ثلاث قولات

يتكون منها أنصاف دوائر حول مدخل الميناء ، وكانت بعض السفن الحقيقية من قاذفات اللهب تشترك في الخططة الدفاعية من استحکامات نفارين وبطاريات المدفعية

وانقضى يوم ١٩ أكتوبر وقد تم فيه وضع الخططة لاحتحام البوغاز (وتدمير العمارتين المصرية والتركية) ومرت ثلاث بوارج إنجليزية ثم استقرت في الأماكن التي عينت لها فأرسل الأميرالاي محرم بك قائد الأسطول المصري رسولا إلى البارجة آسيا (مركز قيادة أمير البحر البريطاني) يطلب إلى كودرنجتون أن يمنع أساطيل الحلفاء من الرسو في نفارين فأجابه قائد الأساطيل أنه لم يأت ليتلقى أمراً بل ليلقى أوامره

ورست مراكب الحلفاء في مواجهة المراكب المصرية والتركية ولم يعد هناك ما ينقذ الموقف من كارثة جلي

وكان أسطول إبراهيم أ كثر عدداً ولكن أقل استعداداً فقد كان لديه ٦٢ سفينة مقابل ٢٧ للحلفاء ولكن قوة الضرب والتفوق في النيران والقيادة كانت في جانب الحلفاء الذين كان لهم في المعركة عشر بوارج مقابل ثلاث للمصريين ، وقد تم لسفن الحلفاء دخول المرفأ وإحكام الحصار حول أسطول إبراهيم

ويقول الأميرال كودرنجتون في تقريره عما حدث يوم ٢٠

أكتوبر ١٨٢٧ « لقد أمرت بأن لا يطلق مدفع من سفننا إلا إذا أطلق الترك مدافعهم أولاً ، وقد مرت البوارج الإنجليزية أمام البطاريات ورابطت في أما كنها من غير أن تقوم بعمل عدائي ولكن لما أرسلت البارجة دارتموت قارباً من قواربها إلى إحدى الحراقات أصيب الملازم فتزوى وبعض بحارتها بطلقات من بنادق الأعداء فأجابت البارجتان دارتموت ورسيرين بإطلاق نيران دفاعية من البنادق على العدو وعلى أثر ذلك أطلقت إحدى البوارج المصرية قذيفة من أحد مدافعها على سفينة القائد فرد عليه بالمثل ولم يمض إلا قليل من الزمن حتى حمى وطيس القتال واشتركت فيه جميع السفن .. »

وحدثت معركة طاحنة تجاوب فيها الطرفان بالضرب العنيف واستمر القتال في ذلك الميدان رهيب فأصبح أتونا من نار وانقلب البحر دركا سحيقا تدفن فيه السفن والرجال واستمرت المعركة أربع ساعات لا يهدأ لها أوار ثم خيم الهدوء وانقشعت سحب الدخان ثم انفرج الموقف عن هزيمة تامة للقوات التركية المصرية التي خسرت جميع مراكبها وخسرت ثلاثة آلاف قتيل وعدداً من الجرحى في مقابل ٤١٠ من الحلفاء بين قتيل وجريح

وقد حارب المصريون ببسالة فائقة مع أنهم فوجئوا بالحرب وعلى الرغم من تفوق الأعداء عليهم وسابق خبرتهم في الحروب

وكانوا كلما جنحت منهم سفينة وعجزت عن القتال أشعلوا النار فيها حتى لا تقع في أيدي الأعداء ، وبذلك فقدت مصر أسطولها العزيز بعد ما تكبدت في سبيل تكوينه ما تكبدت من وقت ومجهود وأموال وكان إبراهيم باشا بعيداً عن الميدان حينما حدثت هذه المعركة المشؤومة وسمع بما حل بأسطوله بسبب خطأ موبق وفي هذا دليل على أنه كان أميناً على تنفيذ عهده فلم يستعد لمحاربة الحلفاء وإلا لكان على رأس أسطوله في القتال ولما غاب عن نوارين في ذلك الوقت العصيب .

وعلى الرغم من هذه الكارثة التي إصابت الأسطولين المصرى والتركي فإن تركيا لم توافق أو تسلم بوجهة نظر الحلفاء وأصرّت على رفض مطالبهم وطالبت بتعويض ما حدث لأسطولها فلما وقفت ذلك الموقف العنيد من الحلفاء أعلنت روسيا عليها الحرب وأرسلت فرنسا جيشاً لإجلاء المصريين والترك عن اليونان

وقد انتهت الحرب الروسية التركية بعقد معاهدة أدرنه التي سلمت فيها تركيا بمعاهدة لندن فاعترفت باستقلال اليونان استقلالاً داخلياً مع بقاء السيادة الرسمية لتركيا . . ثم انتهى الفصل اليونانى من موضوعنا أما إبراهيم باشا فعلى الرغم من الأسى الذى شعر به أزاء نكبة أسطوله فإنه لم ير فى ذلك مدعاة لإنهاء القتال ، فأرسل إلى محمد على

ينبئ به بأمر الكارثة البحرية وأنه يعمل على تلافي آثار الهزيمة ويستعد لمواصلة القتال ، وقد طلب إرسال المدد لاسيما السفن ، وكان جيشه في ذلك الوقت ١٢ ألف جندي نظامي ، وأربعة آلاف غير نظامي وألف فارس ومؤن تكفي أربعة أشهر

وكان سليمان باشا قد احتل تريبولتزا وكان إبراهيم يتقدم نحو كليوبوليس دون أن يعنى بالمسائل الدبلوماسية فقد كان يراها من اختصاص والده ومن اختصاص السلطان ، أما هو فكان جندياً يعرف أن واجبه هو القتال بشجاعة وإلى آخر طلقة

أما محمد علي باشا فكان دائم الاتصال بنض أوربا الدبلوماسية يباحث السفراء ويدرس نيات الدول المتحالفة ، وخرج من مباحثاته ومشاوراته بضرورة الكف عن القتال بعد ما فهم من نيات البلاد المتحالفة وبعد ما حلت الكارثة بأسطوله وانقطعت المواصلات البحرية بأيدي الحلفاء فلم تعد ثمة مصلحة للاستمرار في الحرب كما أنه لم يجد اضطراراً إلى التقيد بسياسة تركيا والسير في ركابها ، فقد جاءت الفرصة المواتية ليتفق مع الحلفاء رأساً وليكي يصبح لمصر المستقلة مركز شهير وقد تم الاتفاق بين الحلفاء ومحمد علي في أغسطس سنة ١٨٢٨ على إخلاء المورة تحت الشروط الآتية : —

(١) يتعهد محمد علي بإعادة الأسرى اليونانيين وتحرير من
بيع منهم في مصر

(٢) يتعهد الأمبرال البريطاني بإرجاع الأسرى المصريين
وإعادة السفن المصرية التي أسرت

(٣) تخلي الجنود المصرية المورة وينقلهم محمد علي بسفنه إلى مصر

(٤) تترك الحرية لليونان المقيمين بمصر في البقاء أو العودة

(٥) لا يجوز لإبراهيم باشا أن يترك في المورة عددا من العساكر
يزيد عن ألفين ومائتين للمحافظة على مودون وكورون ونقارين وباتراس
وكستل توريه أما المواقع الأخرى فتخلي فوراً

وقد تم تنفيذ هذه الشروط وعادت القوات المصرية في شهر
أكتوبر سنة ١٨٢٨ بعد هذه الحملة المجهدة والقتال والفعال الحربية
الخالدة والمتاعب والضحايا والنفقات

وإذا كانت مصر قد خسرت في حملة اليونان ثلاثين ألفاً من
الجنود وأنفقت ٧٧٥ ألف جنيه وفقدت أسطولها البحري فقد كسبت
مركزاً دولياً معترفاً به ، وفاوضت الدول المتحالفة رأساً بغير وساطة
تركيا ، وظهرت شخصية مصر الدولية وأصبحت دولة مستقلة فعلا
عن تركيا خصوصا بعد اتفاقية أغسطس سنة ١٨٢٨ وهي أول وثيقة
تحدد مركز مصر السياسي في عهد محمد علي



سليمان باشا «الفرنساوى»

الحرب السورية الأولى

انتهت حملة بلاد اليونان بعد حرب مريرة وجهود مضنية وانكسار بحرى ودماء مراكمة ، وانتهت بغير مكافأة كريمة من الباب العالى للرجل الذى ضحى برجاله وأسلحته ومعداته لخدمة تركيا وإنقاذ سمعتها ، ولم يزد نصيبه مقابل ذلك كله على إسناد ولاية كريت إليه وهى جزيرة ثائرة لا سبيل إلى إخضاعها ولا نفع من السيطرة عليها ولم يقتصر الأمر على هذا الحد بل كان واضحاً أن العلاقات التركية المصرية لا تتجاوز من أسباب الخداع ، فكان السلطان يغار من قوة محمد على التى كانت فى ازدياد ، وكان وهو يدفع به إلى ميدان الحرب اليونانية إنما يرمى - إلى جانب الاستفادة من معاونته - إلى شغله فى تلك الحرب عن الاستمرار فى تنمية قوته ، وإلى تدمير جزء من قواته ومعداته ، كما كان يترقب الفرصة التى بسدد فيها ضربته فيقضي عن حكم مصر ويتخلص من منافسته نهائياً

أما محمد على فقد ذهب المؤرخون إلى ناحيتين فى تحديد أهدافه فرأى البعض أنه كان يشعر بفساد أداة الحكم فى تركيا وأن حكماً

كمذا مآله الانهيار وساءه أن يقضى على هذه الأمبراطورية الإسلامية
فتمنى أن يحل محل السلطان وأن يسيطر على هذا الملك الواسع حتى
لا تتصدع أركانه أو يضعف شأنه ، ويقول أصحاب هذا الرأي أن
محمد على كان يتمنى ذلك ولكنه كان ضعيف الأمل في تحقيقه لأن
حالة الضعف كانت قد تسربت إلى عمق لار جاء معه في إنقاذ الأساس
من التآكل والانهيار

هذا بينما يرى عدد من المؤرخين أنه كان يحلم بأمبراطورية
مصرية فتية تستند إلى القوة وتضم مصر وبلاد العرب وسوريا
والسودان فتحتل بذلك مكان تركيا في الوجود وتظفر بمكانة دولية
عالية وتساهم بنصيب ملحوظ في سياسة العالم وتقف إلى جانب
الدول الأوروبية الكبرى

ولا غرو أن طمع محمد على إلى ذلك فقد كان يشعر بضحف تركيا
وفساد أداة الحكم فيها وكان شديد الثقة بقدرته وكفاية رجاله
وصلاحية النظم التي أدخلها في حكم مصر ومهارة جيوشه وقواته
البحرية وخبرته بالسياسة والحرب ، وكان يرى أن حدود مصر
الطبيعية يجب أن تكون عند طوروس وكاشف السلطان بذلك
وطالب إليه أن يمنحه ولاية سوريا جزاء لما بذله من تضحيات في
حروب المورة فلم يجبه السلطان إلى طلبه ، فلم تعد هناك مندوحة من

الالتجاء إلى سيفه ، ولم تكن الحرب اليونانية قد أضعفت عزيمته محمد على مع ما خسر فيها من قوات وعلى الرغم من تدمير أسطول له ولـسكنه كان حاكماً بصيراً وقائداً حكيماً أخذ في زيادة جيشه وبناء أسطول جديد بهمة عالية ... وأصبح الجيش والأسطول جاهزين في خريف ١٨٣١ ولم تكن فكرة ضم سوريا إلى مصر وليدة تلك الفترة التي أعقبت الحرب اليونانية ولـسكنها كانت مطمحاً قديماً لمحمد على منذ ثبت في ولاية مصر وقضى على الخصوم وانتهى من الارتباك الداخلية حتى أن بعض دوائر الآستانة كانت تظن أن حملة محمد على إلى بلاد العرب قد تخرق الصحراء إلى سوريا بدلاً من الحجاز.

كما ثبت فيما أورده المؤرخون أن محمد على قد طالب بهذه الولاية فعلاً أثناء حربه في بلاد العرب وكانت حقيقته في ذلك حاجته إلى الإمدادات لإنهاء الحرب الوهابية ، وقد ذكر قنصل فرنسا في مصر في تقرير بعث به إلى حكومته عام ١٨١١ « أن محمد على يطمح في ولاية سوريا وقد قال يوماً أنه لا يستبعد أن يناهها مقابل مبلغ من المال يدفعه لخزانة السلطان » كما ذكر الدكتور كاوت بك في مذكراته « إن ضم سوريا كان ضرورياً لصيانة ممتلكات الباشا ، فنذ تقرر في الأذهان إنشاء دولة مستقلة على ضفاف النيل تفيد المدنية فائدة عامة رجب الاعتراف بأنه لا يمكن إدراك هذه الغاية إلا بضم سوريا إلى مصر . . »

وقد ظل محمد علي ينتهز الفرصة حتى جاءت بأكثر من وجهه يدفعه إلى العمل وأكثر من سبب يدعو به إلى امتشاق الحسام وكانت تركيا قد خرجت من الحرب اليونانية ثم من الحرب الروسية مقصوفة الجناح فقد ضاعت بعض ممتلكاتها وتناقص نفوذها وزادها ضعفا ما طرأ على حالة الجيش التركي من انحلال بعد إلغاء فرقة الإنكشارية

ولم يكن أهل سوريا محبين للحكم العثماني بل كانوا يتمنون الخلاص منه لكثرة ما عانوا من المساوئ والمظالم وبذلك لم يعد يضرهم تغيير ذلك الحكم ، بل إن رجال لبنان وأمرأ نابلس وطرابلس كانوا يعضدون محمد علي وكانوا عوناً له في غزواته الكبرى ... هذا من ناحية الأطماع والتصميمات ، أما السبب المباشر فقد كان وحده كافياً للشروع في ذلك الزحف على سوريا والانتقام من عبد الله باشا بسبب موقفه العدائي من محمد علي

وكان لمحمد علي يد سابقة على والي عكا فقد سعى إلى تثبيتته في الولاية حين غضب عليه السلطان ، ولكنه لم يحفظ ذلك الجميل وكان رجلاً كبير المظامع قوى النفوذ ، يستقل بولايته ويمد سلطانه إلى فلسطين ويسعى لضم ولاية الشام وينافس محمد علي في أطماعه وبذلك بذرت بذور الشقاق ولم يعد الموقف يتسع لهما معاً

وقد طلب محمد علي من والى عكا دفع ١١ مليون قرشا وإعادة المهاجرين من مصر وعدم السماح بالهجرة إلى عكا فرد عليه عبد الله ردا جافا تحدى فيه محمد علي بل شهر السيف في وجهه وجاء في رده «إني مثلك وزير لمولانا وليس من حق أن أسنع الرجال المخلصين لمولانا المعظم من الانتقال من مصر إلى الشام» وبذلك وضحت نيات حاكم عكا ولم يعد من سبيل لتلافي الحرب

وفي التاسع والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٨٣١ تحركت الحملة فقاد إبراهيم باشا يكن الجيوش البرية في طريقه إلى حدود سوريا بينما تحرك الأسطول المصري من الاسكندرية حاملا إبراهيم باشا سر عسكر الجيش ومعه أركان حرب وقوة من الجيش وعدد من المدافع والمؤن والذخيرة . في الطريق إلى ثغر يافا ، وكانت حملته على سوريا مؤلفة من ثلاثين ألف مقاتل وأسطول مكون من ٦ سفن حربية و ١٧ سفينة نقل تحت إمرة الأميرالاي عثمان نور

وفي حيفا التقت الجيوش البرية بالحملة التي جاءت عن طريق البحر وأعدت قاعدة التحركات العسكرية وبدأ منها الشروع في الزحف على عكا .

واتخذ إبراهيم حيفا معسكرا عاما لقيادته وجعلها قاعدة العمليات وهناك انضمت إليه قوات العرب التي كانت مترددة بين الفريقين ،

كما انضم إليه رجال الدين من المسيحيين — وقد كان لهم نفوذ كبير في الشام ، ويرى بعض المؤرخين أن هذين العاملين السياسيين كان لهما أثر في فتح الشام لا يقل عن أثر العمليات الحربية

وبلغت القوات المصرية أبواب عكا ، المدينة ذات الشهرة الحربية الذائعة التي صدّت نابليون وانفردت بشهرة الثبات أمامه وقد جعلها عبدالله قلعة الحصينة وزادها مناعة وقوة وجعل فيها ٣٠ ألف مقاتل يدافعون دفاع المستميت

وقد أرسل سر عسكر الجيوش المصرية إلى والى عكا يطلب إليه إجلاء النساء والأطفال قبل أن يبدأ هجومه على المدينة فلم يستمع عبدالله إلى ذلك ، وكان إبراهيم قد ضرب نطاقا حول المدينة منذ السادس والعشرين من نوفمبر وبدأ يشدد عليها الحصار برا وبحرا ، وأمطرتها مدفعية السفن ومدافع الميدان بوابل من قنابلها فجاءت بمدافع الحصون بنار ممائلة وأصيبت في ذلك القتال عدة سفن مصرية فتراجعت إلى الإسكندرية وانتفت المحاولات التي أراد بها إبراهيم باشا أن يأخذ المدينة عنوة واستعصت عليه طيلة ثلاثة أشهر . .

أما تركيا فكانت تنظر إلى هذه الحملة باستياء فقد أقدم محمد علي عليها دون أن يرجع إلى السلطان ، فأرسل إليه السلطان مندوبا يطلب إليه عدم الاستمرار في الزحف وأن يوقف الأعمال الحربية فوراً فظاهر

محمد على بالطاعة وأخذ بمأطل في الجواب بينما كان إبراهيم ينهب الأرض بجيوشه ويشدد الحصار على عكا فلم تر تركيا بدا من مقابلة ذلك الاعتداء بمثله فأرسلت جيشا قوامه عشرين ألف مقاتل تحت قيادة عثمان باشا والى طرابلس وعهدت إليه رفع الحصار وأصدر السلطان أمرا يرمى فيه مصر بالمروق ويعلم حصار ثغورها وأصدر في الرابع من مايو فرمانا بتجريد محمد على من ولاية مصر وإباحة دماؤه ودماء إبراهيم باشا

وكانت أقوى الهجمات على المدينة تلك التي شنّها إبراهيم باشا في التاسع من شهر مارس سنة ١٨٣٢ فبرز بها قلاع المدينة دون أن ينال منها منالا ، وزاد الموقف سوءا تقدم الجيش العثماني لتخليص عكا وفك حصارها فاستقر رأى إبراهيم على ترك قوات كافية لتثبيت المحاصرين بينما يزحف بمن بقي ليواجه العدو الآخر قبل أن يصل إلى ميدان المعركة

على أن ذلك الجيش الذي أنفذه السلطان تحت قيادة عثمان كان قد أُمنى بما يشبه الهزيمة في طرابلس حينما هاجمها ثم رد على أعقابها فعاد إلى محاصرتها والضغط عليها ، وكاد أمرها ينتهي إليه لولا أن بادر إبراهيم إلى نجدةها وأسرع في زحفه الموفق عليها فارتدت عنها قوات العثمانيين

وكأنا كان إبراهيم يلقى الرعب في نفوس أعدائه وكأنا كان اسمه وسمعة جيشه بشير الفوز في حملاته فقد انسحبت القوات التركية وأمعنت في انسحابها ، ولم يندفع إبراهيم في إثر هذا الانسحاب قبل أن يتزود بحاجات جيشه من الميرة والذخيرة فعاد إلى بعلبك ، وفي الطريق عاد الجيش التركي إلى مهاجمته ، فانقض عليه إبراهيم في سهل الزراد وأصابه بضربة قاصمة

والتكتيك الذي اتبعه إبراهيم في هذه المعركة جدير بالتسجيل والملاحظة فقد ظهرت فيه ضروب المهارة ومخادعة العدو ودقة الترتيبات ، ذلك أن الجيش المصري اصطف في صفوف متوالية ، أما مدفعيته فقد نظمت خلف جنود المشاة حتى لا يشعر العدو بإمكانها وعند ما تقدمت قوات الأتراك مطمئنة إلى أنها تهاجم المشاة فحسب أخذت المدافع تطلق نيرانها الرهيبة بين دهشة المهاجمين الذين أذهلتهم المفاجأة وحصدتهم النيران وتلقوا هزيمة مكدرة تفرق على أثرها شملهم وضاعت مقاليد الأمور من أيديهم فارتدوا نحو حماة ..

وأخذ إبراهيم يرسم الخطة للأعمال المقبلة ، وتأتية العيون بالأخبار فعلم أن عثمان باشا قائد القوات التركية قد أرسل في طلب الإمداد من الآستانة فلا يمكنه معاودة القتال قبل شهرين .. وإذن فليستجه إبراهيم إلى عكا وهو مطمئن أن جيش عثمان باشا لن يلحق به ...

وفي ٢٣ مايو سنة ١٨٣٢ عاد إبراهيم إلى عكا فشاد حولها حلقة من قوات الحصار برأ وبحراً فترددت وتزلزلت أركانها ولحظ القائد العام منها ذلك فشهر سيفه وهدّد كل جندي يحاول النكوص على عقبيه برمي عنقه ثم دفع بالجنود الى الأمام وما زال بهم حتى اتخذ لهم مكانا في الشجرة . . وجاء المدد وبينما كان القسم من العساكر يصد العدو بإطلاق البنادق عايه كيان القسم الآخر مشغلا بإنشاء استحكام للدفاع، وحدثت على أثر ذلك معركة طاحنة، وكان الطرفان يقاتلان ببسالة وحمية ويتبادلان المواقع ، واستمر القتال طول اليوم ثم تراخت قوات الدفاع وجنحت الى الاستسلام بعد أن ذاقت مرارة الهزيمة ولاقت جيم الخسائر فكيفت عن القتال وسلم عبد الله المدينة في المساء

وبذلك وقع حدث تاريخي فإن هذه البندقية التي استعصى كسرهما على نابليون قد سُحقت في يد إبراهيم فلا عجب أن ذاعت شهرة الواقعة وأعلنت قيمة الفاتح ونشرت صفحة تمجيد ونخار للجيش المصري

وقد كان سقوط عكا هزيمة مكبرة للسلطان فأدرك ما تتعرض له أملاكه وهيبته من خطر حين تتقدم جيوش مصر ويكتب لها النجاح في غزواتها ولهذا قرر أن يجابه الموقف بأقصى ما يستطيع من قوة فحشد جيشا كبيرا مكونا من ستين ألفاً وأسطولا ضخما

قوامه خمس وعشرون سفينة وعهد بالقيادة العليا إلى سردار أكرم
« حسين باشا » القائد الكبير ووعد به بولاية مصر وكريت إذا قهر
محمد علي وخلّصه منه إلى الأبد

وفي أوائل شهر يولييه ١٨٣٢ كان الجيش التركي قد بلغ أنطاكية
وهناك بدأ وضع الخطط وتنظيم العمليات الحربية ، وقد استقر رأى
القيادة على أن يتقدم جزء من الجيش بقيادة محمد باشا وإلى حلب
لكي يتجه إلى حمص فيعسكر بها ويحصن قلاعها

وأرسل إبراهيم باشا عيونيه وأرصاده لتأتيه بالأخبار فإذا هو
واقف على أسرار الخطة التركية وعالم بأمر القوة التي تتخذ حمص
مركزاً دفاعياً فوضع خطته فوراً وكانت تقضى بالتقدم إلى حمص
والإجهاز على القوات الموجودة فيها ثم التقدم إلى الشمال لمهاجمة بقية
الجيش العثماني .

وكان الجيش المصري حين وصل إلى حمص وواجه معسكرات
الاعداء يبلغ ثلاثين ألف مقاتل ، وهناك كانت أوضاع الفريقين
على النحو الآتي :

الجيش التركي يتخذ مواقعه جنوب البلدة في ثلاث صفوف ، يشتمل
الصف الأول على جنود المشاة والثاني من المشاة والفرسان والصف
الثالث من جنود غير نظامية ، وكانت المدافع تحمي أجناب هذه الصفوف

واتخذ الجيش المصرى مواقعه فى مواجهة الجيش التركى على ثلاثة صفوف أيضا يشتمل الصفان الأولان على جنود المشاة تحف بهم من اليمين واليسار قوات من الفرسان بينما انتظمت خلفهم فى صف ثالث قوات احتياطية من الفرسان والمشاة تحمى أجنابها من فرسان العدو ، أما المدافع المصرية فوضع قسم منها فى الأمام ، مجموعة فى الوسط ومجموعة فى اليمين وأخرى فى اليسار ووضعت مجموعة بين الصفين الثانى والثالث

وهذه الأوضاع والخطط إنما تنبئ بنتيجة المعركة سلفا فهى تحدثت بالدقة فى الترتيب والقدرة فى وضع الخطط والكفاية فى القيادة وزاد عن ذلك أن المبادأة كانت فى يد إبراهيم باشا الذى سارع إلى العمل وأمر بالهجوم قبل خصمه ، فقاد كتائب الفرسان فى حركة التفاف ممتازة حول ميسرة الأتراك فشقت ذلك الهجوم فرسان الأتراك وأنزل بهم هزيمة قاصمة ثم تقدمت قوات من المشاة المؤيدة بعدد من المدافع واشتركت مع الفرسان ضد فرسان الأتراك فأنزلوا بها هزيمة منكرة هذا بينما هجمت المشاة فى الوسط وحطمت قوة ذلك الجناح فارتد إلى الوراء ارتداداً مضطرباً عاثراً وتخلّى عن مواقعه

ثم تحركت قوة من ميسرة الجيش المصرى فاتخذت مكانا

جديداً قبالة ميمنة الأتراك وقطعت الطريق عليها وثبتت قواها وحجزتها عن العمل وبهذا زاد الموقف سوءاً على الأتراك وانفلت زمام الأمور من أيديهم وكانت المدافع المصرية تدمر مواقعهم وتسحق قواتهم ، وأخيراً تولى قائدهم إجراء عملية يائسة إذ استجمع قوته في هجمة قدر لها الإخفاق التام ونجم عنها هزيمة مريرة وخسائر بالغة فحلت الكارثة الحقيقية في المعركة وتراجعت القوات التركية أو فرت على غير هدى بعد اندحار مشين ، وقد بلغ عدد الأسرى ٢٥٠٠ وأخذ الجيش المصري ٢٠ مدفعاً وجانباً كبيراً من الذخائر والمهمات وانتهت المعركة ودخل إبراهيم باشا حمص واحتلت قواته حصونها ولم يحدث من القوات التركية المنهزمة أى هجوم مضاد وبذلك صار مفهوماً أن هزيمتها كانت كاملة

وقد أحصيت خسائر الجيش العثماني بألف قتيل و ٢٥٠٠ أسير أما خسائر المصريين في المعركة فكانت ١٠٢ قتيل و ١٦٢ جريح وتعد معركة حمص أول معركة كاملة خاض غمارها الجيشان المصري والعثماني بكامل الاستعداد والأسلحة ؛ فكانت بذلك نصراً للقوات المصرية ونظمها وأسلحتها وقيادتها وكفايتها الحربية

وعاود إبراهيم باشا التقدم بقواته وكان هدفه هذه المرة حلب واحتل في طريقه حماة ودانت له أورفا وديار بكر ثم استمر في زحفه

حتى بلغ مواقع العثمانيين في بيلان وذلك في ٣٠ يوليو سنة ١٨٣٢
وكانت قوة الأتراك في بيلان تشتمل على ٤٥ ألف جندي
تشدد أزرهم مدفعية كبيرة تضم ١٦٠ مدفعاً، وترايط في مواقع منيعة ، غير
أنها كانت تفتقر إلى الروح المعنوية بعد ما لحق العثمانيين من هزائم
مريرة ، أما الجيش المصرى فكان ثملاً بخمى النصر يكسب الوقعة
بعد الوقعة وبتقدم فى غزوة موفقة لا قبل لأحد بدفعها ...

وفى ذلك اليوم ٣٠ يوليو بدت أوضاع الفريقين كما يأتى : —
الجيش التركى بقيادة حسن باشا يحتل قمم الجبال فى بيلان وهى
مواقع دفاعية جيدة تتحكم فى طرق الاقتراب وتستتر الجنود وتعطى
ميداناً جيداً للضرب وتعوق تقدم المهاجمين وتخفى المدافع عن الخصوم
وكان الجيش المصرى بقيادة إبراهيم باشا يحتل السهل المنبسط
وقد نظمت الصفوف فكان المشاة فى الصف الأول ثم المدفعية ثم
الفرسان وأخيراً الاحتياطى من الأسلحة والذخيرة والمهمات

ويعطى ذلك فكرة عن مناعة المراكز التركية التى لم تتوفر
لدى الجيش المصرى وهو محتشد فى أرض مكشوفة واضحة الأهداف
وهنا تظهر براعة القسائد فى تكليف موقفه ووضع خططه وتظهر
كفاءة الجنود فى تنفيذ هذه الخطط وكسب معركة عنيفة أخذ العدو
بأغلب بميزاتها

وكانت قلة جنود إبراهيم باشا تقضى بالالتفاف من الجنب لأن الهجوم بالمواجهة يعرض القوات المهاجمة للنيران البعيدة التي تطلقها المدفعية والتي تقذفها بنادق الجنود المحتمية بالصخور والمخفية في مواقع القتال

وهذا الالتفاف الجانبي يحتاج أيضاً لتثبيت قوات الوسط وشغل قوات الميسرة عن العملية الجارية في الميمنة ولهذا أنفذ إبراهيم بعض قواته من المشاة والفرسان المؤيدة بالمدفعية وتولى بنفسه قيادة هذه الحركة ، وهي العملية الرئيسية ، وقد أوجد لها احتياطيا كافيا ، هذا بينما أنفذ قوات أخرى لتثبيت الوسط وشغل بقية قوات العدو

وعلى الرغم من صعوبة التحركات في هذه البقاع الجبلية ، وما كان يكتنف العمليات من مصاعب جمة وشدائد هائلة ، وعلى الرغم من تعرض الجبهة المصرية إلى رصاص الأعداء ونيران مدافعهم فإن العملية استمرت في نجاح حتى بلغت أهدافها ووصلت الجنود إلى الأماكن التي تبدأ منها الهجوم ، وبدأ القتال ، ولم يمض وقت طويل حتى تراخت قوات الدفاع وزلزلت المواقع فأنجابت عنها الجنود التي استهدفت لنيران المدفعية ورصاص الضاربين الماهرة ، هذا بينما بدأ الهجوم في الوسط وارتدت فرسان الأتراك وتفرقت على غير هدى وأصاب الجناح الأيمن مثل هذه الهزيمة حين سلط عليه الهجوم ،

فانهزمت قوات العثمانيين بصفة نهائية وأمعنت في الفرار بعد ان
ذاقت انكساراً حريباً مرّاً

وفقد الأتراك في هذه الواقعة ٢٥٠٠ بين قتيل وجريح وغنم
المصريون ألفي أسير و ٢٥ مدفعاً وعدداً من الأسلحة والذخائر
ودخلت القوات المصرية «بيلان» ثم اجتازت حدود سوريا الشمالية
إلى أدنة ومنها بدأ إبراهيم يستعد للزحف في الأناضول

وبينما كان الجيش المصري يشهر هذه الحرب الراحدة على الجيش
العثماني كان الأسطول المصري يحوب البحار باحثاً عن غريمه ، وقد
ذكر القنصل النمساوي في تقرير بعث به إلى مترنخ في ٢٠ يونيو سنة
١٨٣٢ « إن تفوق أسطول محمد علي على أسطول الأتراك أمر لا شك
فيه فإذا نظرنا إلى مصير الحرب من هذه الناحية لم يخال لنا الشك في
أنها ستكون وبالاً على الأتراك »

على أنه لم يحدث اشتباك بين الأسطولين ، فبعد تردد طويل عاد
كل منهما إلى قواعده سالماً

وبعد موقعة بيلان أحس السلطان بقلق متزايد مما
سيأتي به المستقبل ولم يشأ أن يستسلم لتلك الهزائم التي ذاقتها قواته
في سوريا وسارع إلى إعداد جيش كبير عهد بقيادته إلى خيرة جنده
الصدر الأعظم محمد رشيد باشا الذي وضع تحت تصرفه ٥٣ ألف

مقاتل ، ولكن هذا الجيش الكبير كان مصابا ببلاء عدم التجانس إذ كان خليطا يفقد الرابطة ويفتقر إلى القوة المعنوية

وكان إبراهيم ينهب الطريق فاتحاً غازيا فاستسلمت له أورفا وعنتاب ومرعش وقيصرية ثم مضى كوماك في جبال طوروس وشفقت خان وأولو قشلاق وهرقلة ، حتى بلغ مشارف قونية بمجهودات بسيطة ، وهناك كان لابد من وقفه لإراحة الجنود وإعادة التنظيم ودراسة المكان ريثما توضع الخطط على أساس ما يعرف من نيات العدو وتدابيره وفي صبيحة يوم ٢٠ ديسمبر كانت قوات رشيد باشا قد أشرفت على الميدان واتخذت أماكنها على سفوح مدينة سيلة ، على مسافة ثلاثة آلاف متر من مواقع الجيش المصرى ، الذى كان يربط شمال قونية وترتكز ميمنته على أرض بها مياه راكدة ، مثلها كان نابليون يفعل بوضع قواته على مركز استناد . .

وكان ذلك اليوم - ٢٠ ديسمبر - من الأيام الشديدة البرودة التى يكتنف جوها ضباب كثيف يحجب الرؤيا ، فلا تنكشف مواقع الطرفين ، وقد تقدمت قوات الأتراك حتى صارت على مسافة ستماية متر من مواقع المصريين ، ولم يشرع إبراهيم باشا فى هجومه قبل أن يتحقق من مواقع الأتراك التى كشف عنها ضرب المدفعية . . ثم قام باستطلاع شخصى من نقطة قريبة واستطاع أن يتعرف الى أوضاع

خصمه وأن يصل إلى مكان الضعف في دفاعاته . . . ثم شرع يسدد ضرباته بمهارة فائقة

وقاد إبراهيم باشا بنفسه الجيش المؤيد بقوات من الفرسان ثم هاجم ميسرة الترك هجوما أيده المدفعية بثيرانها المتواصلة وحطم ذلك الهجوم قوات الأتراك وأزالها عن مواقعها وهى تعاني هزيمة نكراء واضطرابا خطيرا ، وبعد قليل بدأ الهجوم العام وأحدثت القوات المصرية بجيش الأتراك وحاربه حربا لا هوادة فيها حتى كلت قوته وحاقت به هزيمة كاملة بعد سبع ساعات رهية وهكذا انتهتوقعة قونية بنصر حاسم للقوات المصرية فقد أصيب الجيش التركى بضربة مرنة أفقدته القدرة على المناورة وأضعفت همته كقوة مقاتلة ، وقد أسر فى هذه الموقعة قائد الجيش التركى وعدد من كبار ضباطه مع خمسة آلاف آخرين كما فقد نحو ثلاثة آلاف بين قتيل ومفقود ، هذا مقابل خسارة محدودة نسبيا فى الجانب المصرى وهى ٢٦٢ قتيلًا

ولهذا تعد موقعة قونية من المواقع الفاصلة فى تلك الحقبة من الزمن ، فقد كانت آخر محاولات الأتراك لدفع غزاة أراضيهم وأصبح طريق الأستانة مفتوحا أمام إبراهيم باشا لاتعترضه قوات ذات شأن . . . وأضحى النصر النهائى قريب المنال

وأخذت جيوش إبراهيم الفاتح تتقدم في سوريا وهي تخوض معركة بعدمعركة وتسحق جيشا لإثر جيش وكأنما كانت تطوى بساط الدولة العثمانية طيا نهائيا وتفتتح عهداً جديداً في الشرق الأدنى، وقد استرعت انتصارات الجيش المصري أنظار الدول الأوروبية فبدأت تتدخل لتحقيق مطامعها الخاصة وتنفيذ مآربها الذاتية

وأرسل السلطان مندوبا لمباحثة محمد علي في ترك صيدا وطرابلس والقدس ونابلس تحت التبعية المصرية ، ولكن محمد علي رفض هذا العرض ، وكان - وهو يتكلم بلسان الظافر - يرى أن تضم سوريا وولاية أدنة إلى مصر ، وبذلك تكون جبال طوروس هي الحد الطبيعي بين مصر وتركيا

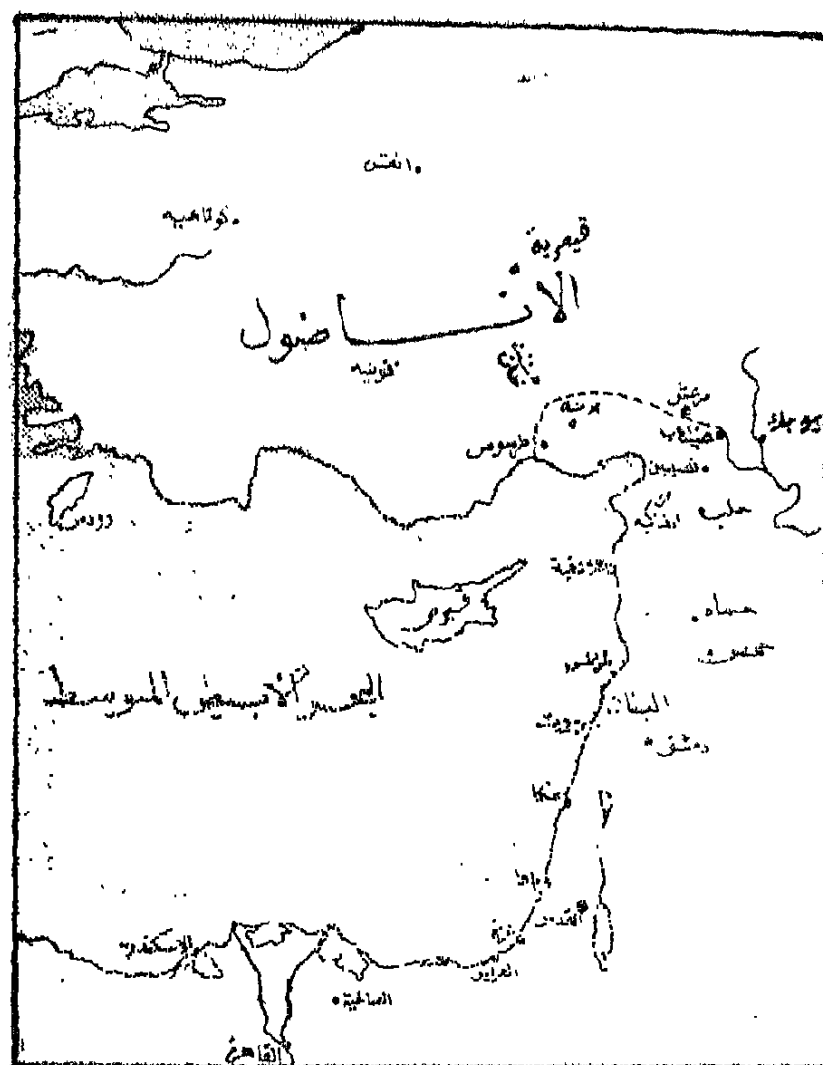
وقد رفضت الدولة العثمانية اقتراح محمد علي الذي كان يضمن السلام وفضلت أن تلجأ إلى روسيا كي تستعين بها ، ولم تتأخر هذه عن انتهاز الفرصة الذهبية فسارعت بتوجيه أسطولها إلى البسفور وإرسال قوة عسكرية على الفور

ولكن نشاط الفرنسيين كان على أشده ، فسعى كل من سفير فرنسا في تركيا وقنصلها العام في الاسكندرية سعيهما المشهور ، بينما كان إبراهيم باشا من ناحية ، والجنرال الروسي من ناحية أخرى يجدان في السير نحو الآستانة

وقد هددت إنجلترا وفرنسا محمد علي باستخدام القوة ما لم يستمع
الى رأيهما فى الاتفاق مع السلطان ، وتبذلت الرسائل فى هذا
الشأن غير أن حديث الكتب لم ينته الى نتيجة ، أما السيف فكان
أصدق إنباء . . . ذلك أن ابراهيم وثب بقواته وثبة جريئة فاحتل
كوهاية وصار يهدد الأستانة ، فأرسل السلطان مندوبا للصالح ، وهو
مصطفى رشيد بك ، وكان يصحبه مندوب من السفارة الفرنسية
ليقرّب بين الفريقين ، وقد انتهت المباحثات فى ٨ أبريل سنة ١٨٣٣ ،
وأسفر « صالح كوهاية » عن تخلى السلطان عن سوريا وإقليم أدنه
لمحمد على مع تثبيتته على مصر وكريت والحجاز

وبمقتضى هذه الإتفاقية انجلى الجيوش المصرية عن باقى بلاد
الأناضول . وصدر فرمان العالى فى ٦ مايو بمضمون الاتفاق . .

وهكذا انتهت الحرب السورية بتقرير موقف مصر الدولى واتساع
نطاق حكمها ، وصار محمد على يتحكم فى مملكة شاسعة تلتهى حدودها
الشمالية عند جبال طوروس ، وبدأت مصر عهدا جديدا لإذاعة
رغائبها فى الحياة وأخذ مكانها بين الدول العظمى



غزو سوريا والأناتوليا

الحرب السورية الثانية

في شهر مارس سنة ١٨٢٣ فصل في الحرب المصرية التركية بقوة السلاح وهزمت تركيا فطلبت إلى القائد المصري شروطه لعقد الهدنة ، ولكن في اللحظة التي وقعت فيها معاهدة كوتاهية بدأ عهد نقض الوعود التي قطعت ، وانتهى الأمر بتركيا إلى عقد معاهدة سرية مع روسيا أطلق عليها اسم « هنكار أسكدة سي » ، وهي معاهدة للمعاونة المتبادلة يتعهد فيها الطرفان بأنه في حالة الاعتداء على أحدهما فإن الطرف الآخر يقوم في الحال بإنجاده بصفته حليفا وقد أعطت هذه المعاهدة لروسيا حرية المرور بين البحرين واستخدام البواغيز مع إغلاقها في وجه الدول الأخرى ، فهذه المعاهدة - التي تنقص من السيادة التركية - إنما كانت ردأ يملؤه التحدى على اتفاقية كوتاهية وإنذاراً بنقضها مهما كان الثمن الذي تدفعه تركيا

أما عن الجانب المصري فقد قدمت مصر كل دليل على اعتزامها الوفاء بتعهداتها وانصرف إبراهيم إلى إخماد الثورات - التي كانت الأيدي المغرضة تحركها - وإلى تهية البلاد لعهد جديد تنعم فيه بالحرية

والإصلاح والرقى ... فتركيا كانت العازمة قبل كل شيء على إعادة فواجع الحرب ولم يبد من جانبها أى دليل على المسالمة بل أنها كانت تساعد الثوار وتبذل الوسائل المختلفة لمعارضة الحكم المصرى فى سوريا وتعد العدة لنقض تعهداتها والعودة بجيش زاحف للشأ وإستادت ما تنازلت عنه فى وقت هزيمتها الحربية ولذلك وصفت معاهدة كوتاهية بأنها صلح مزعزع الأساس تنقصه جميع عوامل الثبات ، وأوجدت تركيا بتصرفاتها ما يفرض على القائد المصرى الاستعداد لكل طارئ فإذا ظهر أن تركيا غير جادة فى تنفيذ تعهداتها فإن الجيش المصرى ينهض ويقا تل . . وقد أثبت المؤرخون لآى مدى بعيد كان السبب فى عود التطاحن من جديد الى التدخل الأجنبى وإلى تقصير الأتراك فى فهم روح مصر الحديثة

ولما ظهرت بوادر الخلاف وظهرت أمارات الاستعداد والتحرش رؤى الالتجاء إلى الوسائل السلبية فجرت محادثات لم يقدر لها أى نجاح فقد كانت اليد الأجنبية تلعب دورها وتعاكر الماء حتى يصبح صالحاً للصيود وشجع ذلك تركيا على المضى فى خطتها ولذلك لم تسفر المفاوضات عن شىء ولما اتسعت الهوة لم يجد محمد على بداً من إعلان الاستقلال حتى يقطع الخيط الأخير الذى يربطه بتركيا واستدعى لذلك وكلاء الدول وأعلنهم بقراره فى شهر مايو سنة ١٨٣٨

وفي يناير سنة ١٨٣٩ عقد السلطان مجلساً حربياً واستقر رأيه على إعداد ٨٠٠٠٠ جندي بقيادة حافظ باشا ، للزحف على الشام وبذلك انقضى وقت التسوية الملققة وشرعت القيادة المصرية في الاستعداد ، بعد أن فعلت كل ما تستطيع فقد تمكنت الدول من التأثير على السلطان وتحريضه على مفاتلة محمد علي

أما رأى والى مصر فى ذلك الوقت فقد أعلن عنه بهذه الكلمات القليلة المبينة على حسن التقدير ومضاء العزم « إننى لا أرغب فى الحرب وإن أقدم على عمل عدائى ولكنى أطلب الاستقلال وإن أتخلى عن هذه الغاية . . . »

فلما تطورت الحالة وشرعت تركيا فى الأعمال العدائية لم يعد سبيل للرد على العنف إلا بالقوة والعنف فأخذت القيادة المصرية تعد عدتها وتحصن مناطق الحدود وتقيم القلاع وتصنع المدافع حتى تتم سد مضائق جبال طوروس وتأمين على باب سوريا من ناحية الأناضول وقد فطنت القيادة التركية إلى صعوبة هذا المنفذ فغيرت خططها واستعد قاداتها لوضع خطط حربية ترمى إلى الزحف من جهات أورفة وديار بكر حيث لا تقع المواقع الطبيعية فى طريق الجيوش وأزاء هذا رأى إبراهيم باشا حشد قواته فى حلب لمراقبة تحركات الأتراك وصدهم هجماتهم ، وجعل طلائعه تسد مشارف عينتاب وكليس

وغيرها من اليلاد المشرفة على الحدود .

ووصلت نجيدات من مصر وعلى رأسها أحمد باشا المنكلي وزير الحربية موفداً من قبل محمد علي باشا لمعاونة ابراهيم في الخطط المنتظرة ، وقد عارضت الدول في سفر وزير حربية مصر في ذلك الوقت المشحون بكره باء العداوة بين مصر وتركيا ، غير أن هذه الدول لم تستطع أن تتعهد لمحمد علي باشا بأن الجيش التركي لا يزحف على الشام ولذلك أنفذ وزيره على الفور ومعه التعليمات اللازمة

وقد شرع الجيش التركي في الزحف فعلاً وأخذ قسم منه بقيادة اسماعيل باشا يعبر نهر الفرات يوم ٢١ أبريل سنة ١٨٣٩ واحتشدت طلائع الترك في قرية نصيين وأخذت في احتلال القرى واجتياز الحدود المرسومة في اتفاقية كوتاهية وعند ذلك تحركت القوات المصرية من حلب ودخلت بلدة تل باش يوم ٣ يونيو دون أن تقع معركة ، هذا بينما دخل الأتراك عنيتاب التي انجلت عنها حاميتها مقهورة .

ولا يغيب عن البال أن ابراهيم باشا قد أجل تحركاته إلى آخر وقت ممكن حتى لا يكون البادى بالعدوان وحتى تصله أوامر صريحة من والده وفي الفترة التي سبقت بدء القتال تبادل القائدان الرسائل

دون أن يقف النشاط الحربى حتى وصلت الحالة الى مرحلة الخطر
وجاء إلى إبراهيم باشا الأمر من والده ، بعد طول الانتظار وفيه
بقول : —

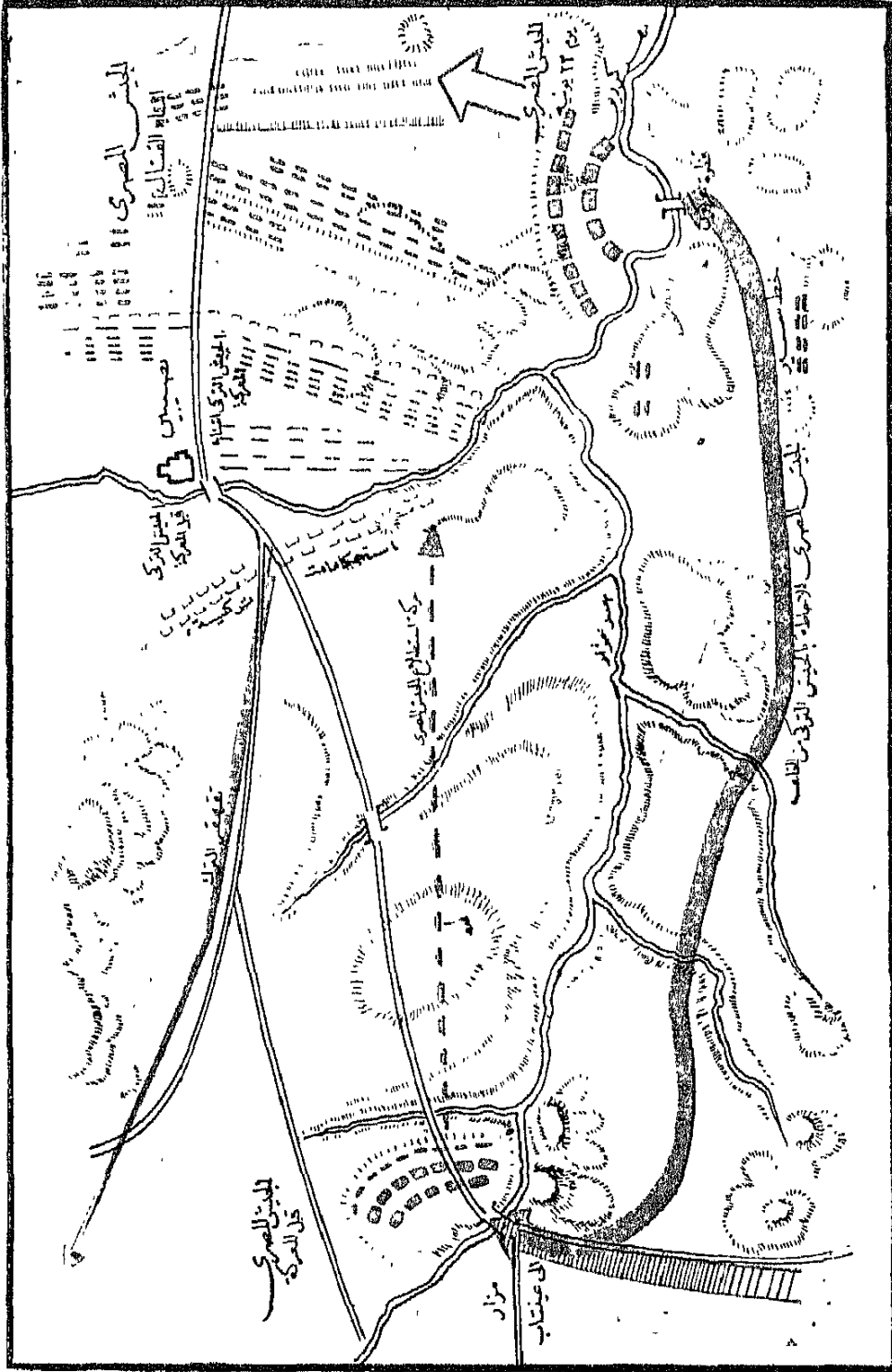
« إن اعتداء العدو علينا قد تجاوز كل حد معقول ، وكلما صبرنا
عليه رغبة منا فى عدم معارضة رغبات الدول الكبرى كلما زاد
عدونا إغالا فى بلادنا فعلىنا أن نرد هجومه بمثله ولما كان العدو هو
المعتدى فان الدول لن تلقى التبعة علينا ... ونصيحى اليك أن تبادر
عند وصول رسالتى بالهجوم على جنود العدو الذين دخلوا أرضنا
وأن لا تسكتنى بإخراجهم منها بل عليك أن تزحف على جيش العدو
الأكبر وتقاتله ... »

وكان الأتراك قد شرعوا فى تحصين نصيبين * التى وضع تصميم
دفاعها قائدان روسيان هما فون مولتكة وفون ملباخ ، فكان معسكر
الأتراك عند سفح التل الذى يجرى عنده نهر كوزين (كرسيم) وهو
من نهيرات الفرات وتقع نصيبين على ضفته اليسرى ، فيصبح ذلك
النهر حائلا بين الجيشين

* يوجد خلاف فى التسمية : نصيبين المشهورة التى دارت فيها رحى المعركة هى
القرية الواقعة على الطريق الموصل بين بيرة جك والأسكندرية وتسمى « نزيب »
وهى غير نصيبين التى بالجزيرة

أما خطة ابراهيم باشا فكانت شيئاً جديداً في الفن الحربى يعبر عن مهارة القائد العظيم فى المواقف العسيرة فقد رأى أن يترك الجيش المصرى المعسكر الذى كان يحتله وقتذاك ويسير مخترقا قرية مزمار (جنوب غربى نصيبين) فى أثناء الليل ثم يدور لمواجهة العدو من من الجانب تجاه قرية كرد قلعة ، وبذلك قلب الخطة التركية البروسية وجعلها ضد أصحابها وبذلك كانت خطة ابراهيم باشا مما لا يساير البديهيات والمبادئ الرسمية الشائعة وإنما كانت من طراز خاص يتطلبها موقف خاص وقد وصفها إيميل فنترينيه بأنها كانت وميضاً من العبقرية إذا نجحت وأوهاما من عقل متعب إن أخفقت

وقبل أن نتحدث عن سير القتال يجدر بنا أن نذكر شيئاً أقوات الطرفين وأوضاعها ، أما عن الناحية العددية فكان الجيش المصرى مؤلفاً من ٣٧٦٧٣ من المشاة و٦٧٧٥ من الفرسان و٥٦٢٥ من الطوبجية فيكون مجموع القوات ٥٠٠٧٢ من الضباط وضباط الصف والجنود وكان معهم ١٦٢ مدفعاً وقد جاء فى بعض المصادر أن الجيش المصرى كان مؤلفاً من نحو ٤٠٠٠٠ مقاتل فى مقابل ٣٨٠٠٠ فى معسكر الأتراك ؛ فالجيشان كانا متقاربين من جهة العدد ، غير أن جميع المصادر قد شهدت بأن الجيش المصرى كان أحسن نظاماً وأكثر دربة وأفضل قيادة كما أنه كان جيشاً منتصراً ، قطع ١٠٠٠



معركة نزيب (نصيلين)

كياو متر من طريق النصر ، وأصبح على قيد خطوات من المعركة الفاصلة في سبيل حياة مصر ومستقبلها ومكانها في الوجود ولا ينس أن الجيش المتسرى كان جيشا واحدا أما الجيش التركي فكان خليطا لا تضمنه رابطة واحدة وكانت قيادة الجيش المصرى معقودة لإبراهيم باشا ، البطل الفاتح ومستشاروه من رجال الحرب الممتازين وعلى رأسهم سليمان الفرنساوى واحمد باشا المنكلى واحمد باشا الدردملى وعباس باشا طوسون وسليم باشا الحجازى وغيرهم أما قيادة الأتراك فكانت معقودة للجنرال حافظ باشا وهو من أفذاذ المحاربين ، وكان مستشاروه من الضباط البروسيين المشهود لهم بالخبرة والجرأة وهم فون ملباخ والبارون مولتسكة والجنرال وينكى والجنرال فيشه وكانت المعركة المنتظرة الوقوع هى القول الفصل فى هذه الخصومة التى طال مداها وقد أعرب سليمان باشا عن هذا الرأى بقوله : ...

« إن الواقعة المقبلة ستكون معركة فاصلة ، فإما أن نذهب نحن إلى استنبول وإما أن يذهبوا هم إلى القاهرة ،
وأخيراً جاء دور الجيوش وبدأت المعركة الكبرى

ففى يوم ٣٠ يونيو سنة ١٨٣١ وصل الجيش المصرى إلى قرية منار ، وما أن ظهرت طلائع الجيش حتى أخذت القوات التركية فى

الانسحاب وإخلاء القرية التي كان يعسكر بها نحو ٥٠٠ جندي ولعل دخول الجيش المصري كان مفاجأة الأمر الذي ألجأ الأتراك الى الانسحاب السريع تاركين معسكراتهم بأمتعتها ، فكانت أول غنيمة صادفها الجيش في غزواته التاريخية

ثم بدأت عملية الاستكشاف وطهر أن الجيش التركي يربط في مواقع محصنة تعطيه الأفضلية وتضعف هجمات عدوه ، ولذلك رأى ابراهيم باشا أن يضيع على الأتراك هذه الميزة وذلك بأن يتحرك من الجنب دون أن يهجم بالمواجهة وقد اتخذت جميع التدابير المحكمة للفت نظر الأتراك عن الحركة الجارية حتى إذا انتهى الجيش إلى أمكنته الجديدة شرع قادته يعدون خطة الزحف والهجوم من الباب الخلفي ، الذي التفت إليه حافظ باشا أخيرا وأدار جيشه لمواجهة

وقد ذكر المغفور له الأمير عمر طوسون نقلا عن أوثق المصادر ، أن العمليات قد بدأت في يوم ٢٣ يونيو ، وأن نشاط الأتراك كان ملحوظا بجلاء فقد كانوا يشتغلون بجند في إقامة حصون بسيطة وقتية ليضمّنوا بها ستر واجهتهم الجديدة على قدر الإمكان

ورأى ابراهيم باشا أن ينتقل معسكره مرة ثانية ، حتى يلتف حول غريمه من جهة اليسار ، فتصبح خطوط الجيش غير متوازية ويصير الجناح الأيمن للجيش التركي أقرب للهجوم ، وبذلك تحيى

الضربة من الجنب الضعيف ولهذا احتل الجيش المصرى ربوتين صغيرتين تواجها الجناح الأيسر للترك

واستعد الجيش المصرى للهجوم الحاسم ، وكان ضروريا أن يكون الجناح الأيمن قوياً فأضيف اليه قوة جديدة وعين لقيادته سليمان باشا وكان يتولى قيادة القلب أحمد باشا المنكلى والجناح الأيسر الميرميران عثمان باشا

وجاءت الساعة الحاسمة فأشار سليمان باشا إلى مدافعه فأرسلت وابلا من القذائف المبيدة فردت عليها الطوبجية التركية وتبدلت النيران بقوة وحماسة ، ثم قام سليمان باشا بحركة تجمع نيران المدفعية فدكست مواقع الترك وحطمت قواهم الدفاعية التى لم تستطع الثبات وأخذت تنسحب من مواقعها ، وتخلي كثير من الجنود عن مدافعهم وحدثت عدة انفجارات فى ذخيرة الجيش التركى فأوقعت الارتباك وأضاعت مقاليد الموقف وتقدمت قوات المشاة من الجناح الأيمن لمهاجمة القوات التركية ولكن هذه أجابتها بنيران حامية فقطضت على حركة الهجوم التى لم تكن قد نضجت بعد ثم صدر الأمر بالهجوم العام الذى أيدته نيران المدفعية ووقع ثقل الهجوم على الجناح الأيسر للقوات التركية وتحطمت مواقعه وحدث ارتباك كبير فى صفوف الأتراك ، وانسحبت وحدات كثيرة على غير هدى وضاع

زمام المعركة وانتهى القتال ، ووثبت القوات المصرية إلى نصيبين
وسجلت نصراً باهراً بعد عملية حربية ممتازة

وكانت نتائج الانتصار للجنود المصرية في نصيبين عظيمة جداً
من الوجهتين المادية والمعنوية وغنم المصريون ١٤٤ مدفعاً مع
ذخيرتها و ٣٠ مدفعاً من مدافع الحصون و ٢٣ ألف بندقية و ١٥ ألف
أسير هذا وقد فقد الأتراك ٣٠٠٠ قتيل و ٦٠٠٠ جريح مقابل نصف
هذا العدد من الجيش المصرى بين قتلى ومفقودين كما أن انتصار
الجيش المصرى على الجيش التركى كان من الضروريات القصوى
لإرهاب المزمعين على الثورة فى سوريا وجعلهم يخلدون إلى الطاعة
وقد تحقق ذلك ولولاهم لانهى حكم محمد على وجاءوا هم إلى القاهرة
كما قال سليمان باشا ، وقد أورد الأستاذ عزيز خانكى نقلاً عن أوثق
المصادر أن عدداً من الوثائق وجد فى خيمة حافظ باشا منها وثيقة
تتضمن التعليمات والخطط التى وضعها السلطان لحافظ باشا وخلصتها
أن محمد على ينوى إعلان استقلاله فى صيف عام ١٨٣٩ فأوجب
السلطان على حافظ باشا السرعة فى القضاء على جيش إبراهيم وحدد
السلطان خمسة أشهر لطرد المصريين من الأناضول وسوريا
والاستيلاء على عكا وحدد أحد عشر شهراً أو سنة لإتمام الاستيلاء
على سوريا ومصر .

وذكر البارون فون مولتكه أن الجيش العثماني خسر في تقهقره
خمس أسداس عدده كما خسر جميع مدفعيته

وبعد هذا النصر المبين أصدر إبراهيم باشا أمراً يومياً جاء فيه :
(أخبركم بأنني هجمت على الجيش العثماني في نزيب ، وفي أقل من
ساعتين استوليت على مدافعه وذخائره ومؤننه وقد قضى على الجيش
كله وأنا أتابع سيرى ولا أقف أبداً)

وبلغت أنباء المعركة إلى محمد علي باشا في برقية أرسلها حفيده
عباس باشا وقد جاء فيها « بعد ساعتين في قتال مع جيش السلطان استولى
إبراهيم باشا على جميع مدافع وخيم ومهمات الجيش العثماني »

وقد أمر محمد علي باشا بإقامة الأفراح احتفالاً بهذا النصر العظيم
مدة ثلاثة أيام كاملة أطلقت فيها جميع القلاع وجميع سفن الأسطول
مدافعها ابتهاجاً بهذا الحادث العظيم ، هذا الحادث الذي وصفه الجنرال
فييجان بقوله « إذا حكمنا على المعركة بنتائجها فإن معركة نزيب تعد
بحق أكبر نصر حازه الجيش المصري »



أحمد باشا المنكلى

جيش محمد علي

انتهت معركة نصيبين « نزيب » بانتصار لامع للجيش المصري الذي استمر في تقدمه واحتل بيره جك وعينتاب ومرعش وغيرها وكان الطريق سهلاً بعد أن تحطمت قوات الأتراك وفقدت القدرة على المناورة والقتال وأخذ المراقبون يتوقعون إقتراب الخاتمة وانتهاء عهد السيادة العثمانية ، ولم يعد هناك ما يمنع إبراهيم من الفوز بالاستانة التي اقترب يومها وحان قطافها

وقد قضى رئيس الدولة التركية ، السلطان محمود ، إذعاجلته المنية في أول يوليو سنة ١٨٣٩ قبل أن تصله أنباء جيشه الذي تحطم في معركة وحيدة وترك أبواب تركيا مفتوحة على مصراعيها .. أما خليفته السلطان عبد المجيد الذي ولى الحكم في السابعة عشرة ، فلم يدرك كيف يواجه هذه الظروف التعسة التي ألمت بعرشه وعاجلته في بداية حكمه وتوالى الحوادث المعكرة على السلطان الجديد ، فان اختيار خسرو باشا صدرا أعظم جرّ على السلطنة كارثة كبيرة ، ذلك أن أميرال الأسطول العثماني ، أحمد فوزي باشا ، كان من أعداء

خسرو ، فحدثته نفسه أن يلوذ بالفرار حتى لا يظفر به عدوه وفضل
أن يقلع بالأسطول إلى مصر ويسلمه إلى محمد علي ، رجل الساعة ،
الذي دان له النصر وفتح له المستقبل ساعديه

وهكذا ترك الأسطول العثماني موانئه في الدردنيل يوم ٤ يوليو
متجها إلى الإسكندرية فوصلها يوم ١٣ يوليو ، وأقبلت على الميناء
عمارة ضخمة مؤلفة من تسع بوارج كبيرة وإحدى عشرة سفينة
وخمس قوارب كروفت ، وعلى ظهرها ستة عشر ألفا من البحارة
 وخمسة آلاف جندي .. فاستقبلتها العمارة المصرية ، ودخلت الميناء
معا في مظاهرة رائعة . وهكذا فقدت تركيا جيشها وسلطانها وأسطولها
في ثلاثة أسابيع

وقد قلنا أن إبراهيم قد فتح باب الأستانة عند ما حطم قوات
الجيش التركي ونكل بها في نزيب ، غير أنه فتح بابا آخر أطلت منه
الأطاع الأوربية وكأنما اجتمعت كلمة الدول العظمى على مناهضة محمد
على وإضاعة ثمرات النصر من بين يديه ، وهي التي أحرزها بعد جهود
مريرة ودماء متدفقة وآلام وتضحيات . . وأرسلت الحكومات
مذكرة مشتركة إلى الباب العالي ، في ٢٧ يوليو سنة ١٨٣٩ لإبلاغه
« إن الدول الخمس متفقة فيما يختص بالمسألة الشرقية وأنها تشدد في
الآتم صلح أو يبرم اتفاق مع محمد علي ما لم توافق عليه الدول »

وقد تم الاتفاق بين « أصحاب الجلالة ملك بريطانيا العظمى وإمبراطور النمسا وملك بروسيا وقيصر روسيا » على تقديم المساعدة للسلطان في المحنة التي رقع فيها على أثر ساوك محمد على العدائي نحوه ، تلك المحنة التي عرخت سلامة الدولة العثمانية وعرش الخلافة للخطر .. وهو الاتفاق الذي تضمنته معاهدة لندن « ١٥ يوليو ١٨٤٠ »

١ - أن تعمل الدول المتفقة بالتضامن على إرغام محمد على لقبول الشروط التي اتفق عليها

٢ - إذا رفض محمد على قبول الشروط التي سيعرضها عليه السلطان فعلى الدول ، بالاتفاق مع السلطان أن تتخذ التدابير الفعالة لتنفيذ شروط الاتفاق بواسطة قطع طريق الاتصال بين مصر وسوريا ومنع إرسال الأدوات والمؤن الحربية من البلدان وتنفيذ ذلك تصدر ملكة بريطانيا وإمبراطور النمسا الأوامر اللازمة لأسطولييهما بالبحر الأبيض المتوسط لمساعدة رعايا السلطان الذين يظهرون ولاهم وطاعتهم

أما القانون الخاص الملحق بالمعاهدة فهو : -

يعان عظمة السلطان عزمه على منح محمد على الشروط الآتية :

١ - يتعهد السلطان بمنح محمد على وذريته من أولاده من بعده حكومة مصر ، وزيادة على ذلك يعد السلطان بمنح محمد على مدة

حياته حكومة جنوب الشام مع إعطائه لقب والى عكا وحكومة الحصن ويشترط السلطان لهذه المنح قبول محمد على لها فى مدى عشرة أيام بعد إعلانها إليه بواسطة مندوب عثمانى يرسله السلطان إلى الإسكندرية وبشرط إصدار التعليمات اللازمة بإخلاء شبه جزيرة العرب وجزيرة كريت وإقليم أطنه

٢ - إذا رفض محمد على الشروط المقدمة بعد عشرة أيام يسمح السلطان بمنحه حكومة عكا لمدة حياته ويوافق على إبقاء منحه الحق الوراثى فى حكومة مصر بالشروط المذكورة فى المادة السابقة

٣ - تعين الجزية حسب الشروط التى سينتهى محمد على بقبولها

٤ - يرد محمد على الأسطول العثمانى بكل أدواته ويسلم المندوب العثمانى الذى سيعرض عليه الشروط دون أن يكون لمحمد على حق فى أى طلب من الباب العالى بخصوص تكاليف الأسطول مدة وجوده بمصر

٥ - جميع القوانين والمعاهدات النافذة فى الدولة تطبق على مصر وعكا كغيرها من أجزاء الدولة

٦ - القوات البرية والبحرية التى تكون لباشا مصر وعكا تعتبر جزءا من قوات الدولة

بالمستون . نيومان . بولوف . برنوف . شكيب

وقد وقعت هذه المعاهدة وقعا سيئاً بالنسبة لمحمد علي غير أنه شرع من فوره في الاستعداد للدفاع عن أراضيه وكون فرقا من الحرس الوطني وتعهد القلاع بالإصلاح والتعمير واستدعى الجيش من بلاد العرب ووجد الأسطولين المصري والتركي وأعدهما للقتال وأعلن محمد علي رفضه لمعاهدة لندن ، وشجعتة فرنسا على ذلك الرفض ، فلما انقضت الفترة التي حددتها المعاهدة تحركت أساطيل الدول وجيوشها ، ونزلت قوات إنجليزية وتركية ونمسية على سواحل سوريا وبدأت تتوغل إلى الداخل ، فسارع إبراهيم باشا بمواجهتها ونشب قتال رابع بين الطرفين في منتصف سبتمبر ، واستطاع الحلفاء أن يقبضوا على زمام الموقف وأن يردوا قوات إبراهيم باشا مرحلة بعد مرحلة حتى سقطت في أيديهم بيروت وصيدا ، وفي نوفمبر سنة ١٨٤٠ سقطت عكا ، وبدأت الأمور تسير إلى نهاية سيئة ، واشتد وقع الحصار البحري الذي ضربه الحلفاء على الشاطئ ، ولم يتطع إبراهيم أن يتراجع بسلام بعد أن تقطعت المواصلات واضطربت الأحوال بسبب ثورة الأهالي . . . ومرت أيام مريرة لاقت الحملة خلالها شذائدا لا حصر لها وانتهى الأمر بانسحاب القوات المصرية انسحاباً مضطرباً عاثراً ، وغادرت البلاد السورية وأخير اضطر محمد علي إلى الموافقة على الصلح بالطريقة التي

اتنقت عليها كلمة الدول العظمى ، وهي تضمن حكومة مصر وراثية
وصدر فرمان بذلك في فبراير سنة ١٨٤١ . وظفر محمد علي بتثبيت
عرشه وعرش أسرته في مصر فوضع بذلك أساس مصر الحديثة ..
وعاد السيف إلى غمده ، بعد أن أدى واجبه ، وسجل صفحات
مجد ونفار بسطور من الدم الذي أريق في سبيل نهضة مصر وإعلاء
رايتها وإبلاغها مكانا كريما بين الدول العظمى

ولانه لما يدعو للغبطة والنخار أن يعيد المصري النظر في هذا
التاريخ القريب فيشهد أعمالا تملؤه إعجابا وثقة بأبناء وطنه الذين
أثبتوا جدارتهم في كل ميدان وحققهم في مكانة دولية محترمة ، فخاضوا
حروبا طويلة وانتصروا في معارك فاصلة وواجهوا أعظم الدول شأنا
وسجلوا في قتالهم ضروب البسالة والبطولة حتى قال ثقة من عظماء
المؤرخين « أن المصريين هم أسلح الأمم لأن يكونوا جنودا ... »

وقال البارون بوالسكونت « إن المصريين خير من رأيت من
الجنود ، إنهم يجمعون بين النشاط والقناعة والجلد ، وهم بقليل من
الخبز يسIRON طول النهار يحدوهم الرضاء ؛ وقد رأيتهم في قونية
ييقون سبع ساعات في خط القتال محتفظين بالشجاعة والبأس ... »
وقال كلوت بك في كتابه « نظرة عامة حول مصر » : « لعل
المصريين من أكثر الناس صلوحا واستعدادا لأن يصيروا جنودا

ممتازين، فهم على وجه العموم أشدهاء أقوياء البنية متصفون بالقناعة والجلد، وقد أزاحت حرب المودة الغطاء عن أعين الترك الذين كانوا يحتقرون المصريين احتقارا شديدا ويزدرونهم فظلوا زمنا طويلا يعتقدون أنهم لا يعادلونهم كفاية، فعلبتهم هذه الحرب أن هذا الشعب الذى وضعته المظالم وحطت من قدره وزرعت فى قلبه المخاوف فى استيلائته أن يسترد مجده التالذ وأن يقارعهم فى مواقف القتال، واصل خير ما فعله محمد على هو أنه لم يترك مسألة الدفاع الوطنى لتكون تحت رحمة الدول الأجنبية فقرر أن يجعل الإنتاج الحربى من صنع المصريين، فكانت الاسلحة والمعدات الحربية وأدوات القتال والذخيرة تصنع فى مصر وبأيد مصرية، وكان ذلك أمرا عجيبا حقا كما رآه المؤرخ الحربى المارشال مارمون، الذى أدهشته هذه النتائج فى بلد ليس فيه خشب ولا حديد، فلما زار هذه المنشآت العظيمة... أو كما قال - هذه المعجزة التى فوق الإدراك، رأى عمالا ماهرين لدرجة كبيرة ولم يكن تدريبهم مقتصرًا على النجارة والحداة والخراطة، بل إن بعضهم مهر فى الأعمال الدقيقة الفنية وآلات الملاحة كالبوصلية والمنظير والآلة المختلفة ... »

وقد عنى محمد على بتنشئة الضباط والجنود تنشئة عسكرية ممتازة فأنشأ المدارس الحربية التى كان منها ما يختص بالضباط ومنها ما يختص

بالأسلحة المختلفة كمدارس المشاة ومدارس المدفعية والفرسان
والموسيقى ، ولم يكتف بثقافة الضباط في المدارس الحربية بل أنشأ
مدرسة أركان الحرب، وكانت ثاني مدرسة أركان حرب أنشئت في العالم
وقد ذكر كلوت بك إحصاء عاما للقوات المصرية البرية والبحرية
النظامية والاحتياطية سنة ١٨٣٩ فإذا هي :

الجيش — وش النظامية	١٣٠.٣٠٢
غير النظامية	٤١.٦٧٨
الحرس الأهلى	٤٧.٨٠٠
عمال المصانع المدربون	١٥.٠٠٠
تلاميذ المدارس الحربية	١.٢٠٠
جنود الأساطيل وعمال دار الصناعة	٤٠.٦٦٣
المجموع	<u>٢٧٦.٦٤٣</u>

وهى أرقام تغنى عن الكلام !!

الفهرس

صفحة

٥	تقديم
٧	نقحة من الماضي
١١	الوصول إلى الحكم
١٩	القضاء على الخصوم
٣١	إخفاق الحملة الإنجليزية
٤٥	إنحداد حركة الوهابيين
٧٤	حملات فتح السودان
٨١	إنحداد ثورة المورة
١١٩	الحرب السورية الأولى
١٣٩	الحرب السورية الثانية
١٥١	جيوش محمد علي

